معاهدة البَقْط

بين والي مصر وعظيم النوبة

من صور الرق

في القرون السبعة الأولى للهجرة

أحمد فؤاد بلبع



إهـــداء٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

معاهدة البقط
بين والى مصر وعظيم النوبة
من صور الرق
في القرون السبعة الأولى للهجرة

أحمد فؤاد بلبع

العربي
للنشر والتوزيع
٦٠ شارع القصر العيني (١١٤٥١) - القاهرة
ت: ٢٧٩٥٤٥٢٩ - ٢٧٩٢١٩٤٣
فاكس: ٢٧٩٤٧٥٦٦
٤٢ ميدان البصرة
شارع دجلة من شهاب - المهندسين
ت: ٣٧٤٩٢١٤٥
فاكس: ٣٧٦١١٨٣٨١
email: alarabi5@link.net
الطبعة الأولى ٢٠٠٨
معاهدة البقط بين والي مصر وعظيم النوبة
تأليف: أحمد فؤاد بلبع
الغلاف والإخراج الداخلي: بكر الجلاس
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٤٧٢٩
977-319-095-1 :ISBN

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الموضوع الذى أتناوله فى هذه الدراسة السريعة موضوع شائك وظالم، معقد وغريب، يزيد من غرابته ذلك النهج الأكثر غرابة الذى اتبعه حياله المؤرخون كافة، القدامى منهم والحديثون. فقد مروا عليه مرور الكرام، واعتبروه حدثاً عادياً شأن غيره من الأحداث، ليس فيه ما يشينه أو ما يبعث على الغرابة. فقال أكثرهم إن البقط لا تعدو أن تكون مجرد معاهدة تبادل تجارى، يتعهد أحد طرفيها بأن يقدم كل عام بضاعة بشرية، سواء من أبنائه أو من أبناء القبائل المجاورة، بضاعة محددة العدد والنوع، مقابل كميات غير محددة من الطعام. وتغافلوا عن أن هذه المعاهدة كانت فريدة فى طبيعتها. بل إن مؤرخاً مرموقاً، هو **محمد جمال الدين سرور**، عندما تناول هذا الموضوع، قد أسقط تماماً لفظة البقط، مستعيضا عنها بألفاظ من قبيل "الإتاوة المقررة" أو "الجزية" أو الأموال التى فرضها المسلمون عليهم بعد فتحهم لها* وهو إسقاط يوحى بالتهوين من شأنها، وبمحاولة غير خفية لتبريرها.

فنحن لم نسمع فى التاريخ عن معاهدة يلزم أحد طرفيها بان يقدم خيرة أبنائه، ذكورا وإناثا، مقابل شئ من الطعام، ولم نسمع عن معاهدة يستمر تطبيقها سبعة قرون متصلة دون انقطاع. أحد طرفيها ثابت، وطرفها الثانى يتغير كل حين بتغير العناصر الفاعلة فيه. ليس يهم إن كانوا سنة أو شيعة، أو كانو عربا أو أتراكا أو مغاربة، ولكن الهدف كان واحدا لا يتغير هو وصول البضاعة البشرية إلى القوى المتسلطة فى القاهرة، التى لم يتخل أىٌّ منها فى أية لحظة زمنية عن الحصول على هذه الثروة الثمينة.

ولكى نيسر على القارئ الإلمام بمكونات هذا الموضوع، كان لابد من إحاطته بالظروف التى صاحبت توقيع معاهدة "البقط" بين عظيم النوبة ووالى مصر عبد الله بن أبى

---

* محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر، الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها، دار الفكر العربى ، غير مؤرخ ، الصفحات ١٥٠ إلى ١٥٩.

سرح. والعوامل التى مكنت هذا الأخير من الظفر بتلك الغنيمة السهلة والظالمة فى آن واحد . فهذه المعاهدة كما يعرفها "المؤرخون" فيها شمال وجنوب. شمال مسلم وجنوب مسيحى، وظلت سارية حتى غلب على سكان الجنوب الطابع العربى والاسلامى. وبهذا ستكون بداية حديثنا عن فتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب. ثم نشفع ذلك بالحديث عن فاعلين أساسيين فيها هما عمر بن العاص قائد الحملة على مصر وأول والٍ عليها من قبل خليفة المسلمين. وثانيهما هو عبد الله بن أبى سرح ثانى والٍ على مصر والذى تولى هذه الولاية فى عهد عثمان بن عفان.

أحمد فؤاد بلبع

عمرو بن العاص

يقول ابن عبد الحكم أن "عمرو بن العاص" قد دخل مصر فى الجاهلية وعرف طرقها، ورأى كثرة ما فيها، وكان سبب دخوله إياها أن عمراً سبق أن دخل إلى بيت المقدس للتجارة فى نفر من قريش، فالتقى هناك بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس ... وكان عمرو يرعى إبله وابل أصحابه، وبينما هو يرعى إبله مر به ذلك الشماس، وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر، فوقف على عمرو فاستقاه عمرو من قربة له، فشرب حتى روى، فنام الشماس إلى جانب حفرة قريبة فخرجت منها حيّة عظيمة لحها عمرو فنزع إليها بسهم فقتلها، فلما استيقظ الشماس ونظر إلى الحية تبين أن الله قد نجاه منها، وسأل عمراً، ما هذه؟ فاخبره عمرو بما حدث، فاقبل الشماس إلى عمرو وقبل رأسه، وقال له: لقد أحيانى الله مرتين، مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما أقدمك إلى هذه البلاد، فقال قدمت مع أصحاب لى طلباً للرزق، وفضلاً فى تجارتنا، ولدى بعيران وآمل أن أصيب بعيراً آخر، فيصبح لى ثلاثة أبعرة، فسأله الشماس كم دية الفرد بينكم، فقال عمرو مائة من الإبل، فقال له الشماس نحن لسنا أصحاب إبل، وإنما أصحاب دنانير، قال عمرو قد يكون ألف دينار، فقال الشماس لقد قضيت نذرى بالسياحة فى هذه البلاد، وأنا الآن أريد الرجوع إلى بلادى، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى، ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله أحيانى مرتين، فقال له عمرو أين بلادك، فقال الشماس إنها مصر فى مدينة يقال لها الاسكندرية، لو أنك دخلتها لعرفت أنك لم تدخل مثلها، فقال عمرو وتفى لى بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق، فتعهد له الشماس بأن يفى بذلك، وبأن يرد عمراً إلى أصحابه، فسأله عمرو وكم يكون مكثى عندكم، فقال شهراً، تنطلق معى ذاهباً عشراً، وتقيم عندنا عشراً، وترجع فى عشر، وتعهد بأن يحفظه ذاهباً وأن يبعث معه من يحفظه راجعاً *.

---

* أبن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، طبعة مكتبة مدبولى ، رقم ١٠ من صفحات من تاريخ مصر ١٩٩٩، الصفحات ٥٣ إلى ٥٥.

"فتشاور عمرو مع أصحابه - وأخبرهم بما عاهده عليه الشماس، وقال لهم تقيموا على حتى أرجع إليكم، ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم آنس به قالوا نعم. فوافقوه على ذلك. فأنطلق عمرو وصاحبه الشماس إلى الإسكندرية، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخيرما أعجبه. وقال ما رأيت مثل مصر قط..... وحكى الشماس لأهل الإسكندرية كيف أن عمراً أحياه مرتين، وأنه قد ضمن له ألفى دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك المبلغ فيما بينهم. ففعلوا، ودفعوها إلى عمرو. فانطلق عمرو وصاحبه. وبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا. فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفا. وقال عمرو كان ذلك أول مال اعتقدته وتأثلته."* (تأثل المال: جمعه وثمره).

فتح مصر

ويواصل ابن عبد الحكم روايته: فلما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب قدم إليه عمرو بن العاص فخلا به وقال يا أمير المؤمنين أئذن أن أسير إلى مصر وحرضه عليها. وقال إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم. وهى أكثر الأرض أموالاً وأعجزها عن الحرب والقتال. فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك. فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب، ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها، حتى ركن لذلك عمر فعقد له على أربعة آلاف رجل، ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة... فقال له عمر سر وأنا مستخير الله فى مسيرك، وسيأتيك كتابى سريعاً إن شاء الله. فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالإنصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها. فانصرف. وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فأمض لوجهك واستعن بالله واستغفره.. واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجهكم ذلك. فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين. فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح. فتخوف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمرو. فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه، وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل له إنها من مصر. فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين. فقال عمرو لمن معه ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلى. قال فإن أمير المؤمنين عهد إلى وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا على بركة الله "*.

---

* المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥.

وعن كتاب عمر بن الخطاب إلى عمر بن العاص أثناء سيره إلى مصر، وما حدث من قتال خلال الفتح، يقول اليعقوبى: " وسار عمرو مسرعا، فلما بلغ رفح، وهى آخر عمل فلسطين، أتى رسول عمر ومعه كتاب، فلم يفض الكتاب، ونفذ حتى سار إلى قرية بالقرب من العريش، وقرأ الكتاب، ثم قال: من أين هذه القرية ؟ قالوا من مصر ! قال: فإن أمير المؤمنين أمرنى إن اتانى كتابه، وقد دخلت شيئاً من أرض مصر، أن أمضى لوجهى وأستعين بالله، حتى أتى الفرما، فقاتلوه نحوا من ثلاثة أشهر، ثم فتح الله عليه، ومضى حتى صار إلى أم دنين، فقاتلوه قتالاً شديداً، وأبطأ عنه الفتح، وكتب إلى عمر يستمده، فوجه بأربعة آلاف.*

ويقال إن عمر بن الخطاب قد أشفق على عمرو، فأرسل الزبير فى إثره فى إثنى عشر ألفا، فشهد معه الفتح. ويتبين من قول اليعقوبى اختلاف الآراء حول الطبيعة التى اتصفت بها عملية فتح مصر، والأحداث التى صاحبتها. فالبلاذرى على سبيل المثال يقول: " وحدثنى ابراهيم بن مسلم الخوارزمى، عن .... عن ....، قال اشتبه على الناس أمر مصر، فقال قوم فتحت عنوة وقال آخرون فتحت صلحاً". ويقول فى موضع أخره " وكان الزبير يقاتل من وجه، وعمرو بن العاص من وجه، ثم أن الزبير أتى بسلم فصعد عليه حتى أوفى على الحصن، وهو مجرد سيفه، كبر وكبر المسلمون واتبعوه، ففتح الحصن عنوة، واستباح المسلمون ما فيه، وأقر عمرو أهله على أنهم أهل ذمة، ووضع عليهم الجزية فى رقابهم والخراج فى أرضهم، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فأجازه**.

وعقب إتمام فتح مصر، وانتقال مقاليد الأمور فيها إلى أيدى المسلمين، تعاطى عمرو بن العاص مع أهل مصر وثيقته الشهيرة تحت عنوان " عهد الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر "، الذى أطلق عليه الطبرى " صلح عين شمس " ونورد فيما يلى نص هذا العهد كما جاء فى تاريخ الطبرى.

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم (جمع صليب)، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيئ من ذلك ولا ينتقص، ولا تساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أ ن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم (جمع لصت وهو اللص) فان أبى أحدهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم

* المرجع نفسه، الصفحة ٥٥.
**أحمد بن يعقوب ،المعروف باليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت، المجلد الثانى، الصفحة ١٤٨.

والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى منهم وأختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. وعليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما في هذا الكتاب عهد الله ذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا. على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. " شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر *

* أبو العباس البلاذرى . فتوح البلدان . تحقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع . مؤسسة المعارف . بيروت , ١٩٨٧، الصفحات ٩٩ إلى ٣٠١.

** أبو جعفر الطبرى . تاريخ الطبرى . تاريخ الأمم والملوك . تحقيق مصطفى السيد وطارق سالم . المكتبة التوفيقية . القاهرة . غير مؤرخ . الجزء الثانى . الصفحة ٥٩٨

عبد الله بن أبى سرح

"هو ابن الحارث بن حبيب بن جديمة بن مالك بن خسل بن عامر بن لؤى، وكان أسلم قديما وكتب لرسول الله الوحى، ثم افتتن، وخرج من مكة إلى المدينة مرتدًا، فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح، فجاء عثمان بن عفان إلى البنى، فأستأمن له وأمنه، وكان أخاً عثمان فى الرضاع"*

ويورد ابن سعد فى موضع آخر الرواية نفسها على نحو أكثر تفصيلاً: " قالوا: وكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أسلم قديما، وكان يكتب لرسول الله الوحى ، فربما أملى عليه رسول الله، سميع عليم، فيكتب عليم حكيم، فيقرأه رسول الله، فيقول: كذلك الله، ويقره، فافتتن عبد الله بن سعد، وقال: ما يدرى محمد ما يقول، إنى لأكتب له ما شئت هذا الذى كتبت يوحى إلى كما يوحى إلى محمد، وخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً، فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح، فجاء إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه فى الرضاعة، فقال ": يا أخى، إنى والله قد اخترتك على غيرك فاحبسنى ها هنا، وأذهب إلى النبى، فكلمه فى، فإن محمداً إن رآنى ضرب الذى فيه عينى، إن جرمى أعظم الجرم، وقد جئتك تائباً، فغيبه عثمان حتى تهدأ الخواطر، وقال له: بل أذهب معى، فقال عبد الله: والله لئن رآنى ليضربن عنقى ولا يناظرنى، قد أهدر دمى، وأصحابه يطلوبننى فى كل موضع.فقال عثمان: انطلق معى فلا يقتلك إن شاء الله، فلم يرع رسول الله إلا بعثمان آخذ بيد عبد الله بن سعد بن أبى سرح واقفين بين يديه. "**

"فأقبل عثمان على النبى، فقال " يارسول الله، إن أمه كانت تحملنى وتمشيه، وكانت ترضعنى وتفطمه، وكانت تلطفنى وتتركه، فهبه لى، فأعرض عنه رسول الله، وجعل عثمان

---

* محمد بن سعد بن منيع الزهرى ، كتاب الطبقات الكبير ، مهرجان القراءة للجميع ، سنة ٢٠٠٢ ، الجلد التاسع ، فى البصريين البغداديين والشاميين والمصريين ، الصفحة ٥٠٢.

** ابن سعد ، المرجع نفسه ، الجلد السادس ، الصفحة ١٣٠.

كلما أعرض عنه النبى بوجهه استقبله. فيعيد عليه هذا الكلام – وإنما أعرض عنه النبى إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه لأنه لم يؤمنه – فلما رأى أن لا يقوم أحد. وعثمان قد أكب على رسول الله يقبل رأسه. وهو يقول " يا رسول الله تبايعه فداك أبى وأمى. فقال رسول الله نعم. ثم التفت إلى أصحابه فقال " ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب فيقتله. أو قال الفاسق ؟! فقال عباد بن بشر: ألا أومات إلى يارسول الله ؟ فوالذى بعثك بالحق انى لأتبع طرفك من كل ناحية. رجاء أن تشير إلى فأضرب عنقه. ويقال: قال هذا أبو اليسر ويقال عمر بن الخطاب. ولعلهم قالوه جميعاً: فقال رسول الله إنى لا أقتل بالإشارة. وقال قائل: إن النبى قال يومئذ: إن النبى لا تكون له خائنة الأعين. فبايعه رسول الله على الاسلام "*

وقد أورد القطبى بدوره جزءاً من السيرة الذاتية لهذه الشخصية المتقلبة الأوجه والأدوار. ويقول إنها المعنية بما نزل فى الآية ٢٩ من سورة الأنعام. "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا. أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه بشيئ. ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله". ويمضى القرطبى قائلاً إن الرسول استدعاه ليملى عليه آية "ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين. ثم أنشأناه خلقاً آخر". ويقال عجب عبد الله بن أبى سرح من تفضيل خلق الإنسان. وقال تبارك الله أحسن الخالقين. فقال الرسول هكذا أنزلت إلى. فقال عبد الله لئن كان محمداً صادقاً فقد أوحى إلى كما أوحى إليه. ويقول محمد ابراهيم نقد إنه "عند فتح مكة أمر الرسول بقتله. هو وعبد الله بن حظل ومقيس بن صبابة. ولو تعلقوا بأستار الكعبة. ففر عبد الله واحتمى بسيدنا عثمان بن عفان.**

---

* ابن سعد . المرجع نفسه . المجلد السادس . الصفحتان ١٣٠ . ١٣١.

** هذه الفقرة مأخوذة من كتاب محمد ابراهيم نقد . علاقات الرق فى المجتمع السودانى . دار الثقافة الجديدة. الطبعة الأولى . ١٩٩٥ . الصفحة ٢٨ . وقد نقل محمد نقد أجزاء من هذه الفقرة عن القرطبى فى كتابه " الجامع لأحكام القرآن " . المجلد ٤ . الجزء ٧ . الصفحة ٧٠ . وحرصاً على مزيد من الدقة نورد ما يقوله ابن كثير فى تفسيره . من أن المقصود فى هذه الآية هو مسيلمة الكذاب.

النوبة
المقومات الجغرافية،
التركيبة السكانية، الحالة الدينية

يطلق "لفظ" النوبة على أجزاء وادى النيل الواقعة على جانبى نهر النيل بين مدينة أسوان والخرطوم الحالية. وتتصف هذه الأجزاء بظواهر جغرافية هامة كان لها تأثيرها على الجماهير البشرية التى استوطنتها فى مختلف العصور، وكذلك على الأحوال الجوية، من مطر صيفى محدود فى بعض المناطق، إلى انعدام المطر تماماً فى بقية المناطق.*

ويقول معجم البلدان إن "النوبة بلاد واسعة عريضة فى جنوبى مصر، وهم نصارى أهل شدة، أول بلادهم بعد أسوان يجلبون إلى مصر فيباعون بها... وقال خير سبيكم النوبة، والنوبة نصارى يعاقبة، ومدينة النوبة اسمها دنقلة، وهى منزل الملك على ساحل النيل، وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليلة، ومن دنقلة إلى أسوان أول عمل مصر مسيرة أربعين ليلة... ومن أسوان إلى أدنى بلاد النوبة خمس ليال، وشرقى النوبة أمة تدعى البجة .. .. قالو: والنوبة أصحاب إبل ونجائب وبقر وغنم، .. ويرمون بالنبل عن القسى العربية .. وخلفهم أمة يقال لهم علوا، .. وربما سبى بعضهم وحمل إلى بلاد المسلمين .. وفى بلادهم ينبت الذهب".**

وبوجه عام فإن المؤرخين والجغرافيين المسلمين قد أطلقوا إسم النوبة على الأراضى الواقعة على جانبى نهر النيل بين أسوان والخرطوم الحالية، وعرفوا أراضيها من ناحية مصر بأسم

---

* مصطفى محمد مسعد ، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سلسلة " دراسات تاريخ السودان فى العصور الوسطى (١) ، ١٩٦٠ الصفحتان ١ ، ٢.

** يا قوت الحموى ، معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٠ ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٣٥٦ ، ٣٥٧.

*** تقى الدين المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية) ، مكتبة الثقافة الدينية ، الجزء الأول ، غير مؤرخ ، الصفحة ١٩٩.

"القصر" التى تبعد عن أسوان أربعة أميال جنوباً، وميلا واحدا من "جزيرة بلاق" (فيلة).***

أما فيما يخص الاسم، فإن الطبرى ينسب النوبة إلى "نوبة بن حام بن نوح". وهو نسب بلا أساس فيما يبدو، ويتفق مع ما جرت عليه عادة المؤرخين المسلمين فى الأنساب. أما الأستاذ بيكيت فيرجعها إلى أصلها المصرى القديم الذى يعنى "أرض الذهب". وقد قامت فى بلاد النوبة قبل الفتح الاسلامى مملكتان مسيحيتان هما مملكة "مقرة" فى الشمال، ومملكة "علوة " فى الجنوب. وكانت مملكة "مقرة" تمتد من حدود مصر الجنوبية عند موضع يقال له "الأبواب" (كبوشيه الحالية)، وحاضرتها دنقلة. وكانت تنقسم إلى أقاليم يحكم كل منها وال من قبل ملك النوبة. وكان أرفع هؤلاء شأنا صاحب الجبل، الذى يحكم المنطقة المعروفة باسم مريس، الذى يعنى الجنوب فى اللغة القبطية (الرياح المريسية هى الرياح الجنوبية). وتعتبر أبريم والدر من أهم مدن هذه المنطقة. أما مملكة علوة فحدها الشمالى يبدأ عند منطقة الأبواب، وتجاورها الحبشة شرقا. وتنقسم علوة بدورها إلى ولايات صغيرة يحكم كل منها نائب عن الملك، وكان أهم هذه الولايات مملكة الأبواب".*

دخول المسيحية بلاد النوبة وانتشارها فى أرجائها :

يقتضى الحديث عن اعتناق النوبة المسيحية التطرق إلى الحديث عن دخول المسيحية مصر وانتشارها فيها. فقد دخلت المسيحية مصر فى منتصف القرن الأول الميلادى. وقد واجه اعتناق المصريين المسيحية صعوبات كثيرة تعرضوا خلالها لسلسة من الاضطهادات الدينية بسبب تهديد الدين الجديد للوحدة الوثنية الرومانية. فاتجهت قطاعات كثيرة من المصريين إلى الفرار بمسيحيتهم نحو الجنوب. واستقر بعضهم فى المنطقة الواقعة بين الأقصر وأسوان، وهى المنطقة التى استعصى على الرومان السيطرة عليها. كما اتجه بعض آخر إلى المنطقة السفلى والوسطى من بلاد النوبة، واستقروا فى جزر النيل وبين ثنايا التلال والصخور على جانبى النيل حيث مارسوا عبادتهم الجديدة بعيداً عن ضغط الرومان **

بعد ذلك أخذت المسيحية تتسلل فى بطء إلى النوبة فى أواخر القرن الثالث الميلادى، ثم ازدادت هجرة المصريين إليها تدريجيا، وأنشئت الأديرة التى كثر عددها منذ ذلك التاريخ. ولم يكن المصريون المسيحيون يركنون إلى حياة العزلة والانطواء، بل كانوا يختلطون بالسكان الوثنيين ويزينون لهم الدخول فى المسيحية. وقد عرفت البعثات التبشيرية الرسمية التى

* عطية القوصى ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، سلسلة تاريخ بلاد النوبة ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ، الصفحات ٤١ إلى ٤٣.

** مصطفى محمد مسعد ، ، الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، المرجع السابق ، الصفحة ٤٤.

أوفدتها كنيسة الاسكندرية فى عهد قسطنطين الأكبر. وبدأت هذه البعثات نشاطها فى بلاد النوبة فى القرن الرابع الميلادى. ومع تسرب المسيحية البطئ إلى بلاد النوبة لم ينقطع سيل الوافدين المسيحيين إليها. وكان هذا السيل يزداد مع احتدام الخلاف بين المسيحيين حول طبيعة المسيح. حتى تطلب الأمر إنشاء أسقفية فى فيلة فى القرن الرابع الميلادى. وتتضارب الآراء حول مدى تأثر النوبيين بهذه المراكز المسيحية التى نشأت بالقرب من أوطانهم. ويقال إن آنى أسقف الاسكندرية قام فى القرن الأول الميلادى بتعميد النوبيين. وربما كان المقصود بهؤلاء النوبيين الذين يعيشون فى مصر للعمل بها مثلما يفعلون اليوم *

وقد قام ثيودور أسقف فيلة وأسوان بدور هام في التمهيد لدخول النوبيين جميعاً فى الدين المسيحي فى القرن السادس الميلاد. ذلك أنه عاش فى هذه المنطقة أكثر من خمسين عاماً استطاع خلالها توثيق صلته بهم خلال زياراته العديدة لبلادهم. ثم بدأت المرحلة الحاسمة من مراحل الدعوى المسيحية فى بلاد النوبة زمن الامبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م). فقد سعى جستنيان إلى اجتذاب البليميين والنوبيين إلى المسيحية كى يتسنى له السيطرة على وادى النيل الأوسط. وذلك فى الوقت الذى بدأت فيه عملية التبشير الحقيقى ببلاد النوبة على يد رسل الكنيسة المصرية. وثمة إثنان من رجال الكنيسة المصرية. وهما يوليان ولوجينوس. كان لهما الدور الأول فى نشر المسيحية فى بلاد النوبة على أنقاض دولة مروى.**

مجمل القول أن مملكتين من ممالك وادى النيل الأوسط تم تنصيرهما على مذهب الكنيسة المصرية هما نوباتيا وعلوة. أما أهل مقرة فقد أعتنقوا المسيحية فى عام ٥٦٩ م. وبرغم بعض الاختلاف بين الكتاب المعاصرين. فالراجح أنه أصبح لكل من المذهبين المصرى والملكانى أساس فى الممالك الثلاث. وقد ترتب على خلو الكرسى البطريركى للكنيسة الملكانية بالاسكندرية قرابة مائة عام – من خلافة عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام بن عبد الملك – أن أصبح فى إمكان بطريرك الكنيسة المرقسية انتخاب أساقفة النوبة. بحيث أصبحت كل بلاد النوبة على مذهب الكنيسة المصرية***.

وتراوحت الآراء عن مدى تأثر النوبيين بالمسيحية. وهل كان اعتناقهم لها على نطاق واسع

---

* المرجع نفسه . الصفحتان ٤٨ . ٤٩ .

** المرجع نفسه . الصفحات ٥٢ . ٥٥ . ٥٦.

*** المرجع نفسه . الصفحات ٥٧ إلى ٦٥ .

أم أنه أقتصر على بعض طبقاتهم دون البعض الآخر. ويقال إن يوليان ولوجينوس قد بدآ بتعميد الملوك ثم الأمراء، ثم بعض أفراد من الرعية. ولم يكن باستطاعتهما فى المدة القصيرة التى قضاها كلاهما فى بلاد النوبة تعميد النوبيين جميعا. ولابد أن قراراً قد صدر من ملوك النوبة باعتبار المسيحية الدين الرسمى للدولة، فاعتنقها الناس لا عن فهم وقناعة، ولكن عملاً بمبدأ "الناس على دين ملوكهم". والأرجح أن النوبيين لم يعتنقوا المسيحية دفعة واحدة، وإنما على مراحل، والدليل على ذلك أنه كانت لا تزال توجد بينهم فى أيام يوليان ولوجينوس بعض العادات الوثنية. وقد زاد انتشار المسيحية فى بلاد النوبة حتى كاد أن يصبح ظاهرة عامة، وذلك نتيجة لهجرة الأقباط من مصر إلى بلاد النوبة على اثر الغزو الفارسى لمصر سنة ٦١٩م، واضطهاد الملكانيين للأقباط بعد أن استرد البيزنطيون مصر.*

ولم يكن باستطاعة النوبيين التوسع فى إنشاء الكنائس الجديدة بعد تنصيرهم، فلجأوا إلى تحويل المعابد الوثنية إلى كنائس. ففى النوبة كانت توجد معابد مصرية كثيرة تحمل نقوشاً فرعونية تم تحويلها إلى كنائس بعد طمس ما عليها من نقوش. أما الكنائس التى بناها النوبيون، فأولاها كنيسة مارى بأبريم، التى ربما يرجع تاريخها إلى أواخر القرن السادس الميلادى. وثانيتها كنيسة بناها لوجينوس أثناء إقامته الأولى بين النوبيين ما بين سنتى ٥٦٩ و ٥٧٥ م. والثالثة هى كنيسة دنقلة.**

ويقول نعوم شقير إنه عندما جاء المبشرون المصريون والبيزنطيون إلى النوبة لنشر المسيحية بها، كانت توجد بها ثلاث ممالك كبيرة هى: مملكة النوبادين، أو ما يسمى مملكة نباتا، جنوبى الشلال الأول وحتى الشلال الثالث؛ مملكة الماكوريين أو مملكة مقرة، وحاضرتها دنقلة ؛ وفى أقصى الجنوب كانت توجد مملكة ألوديا أوعلوة. ومنذ عام ٥٨٠ م كانت الممالك الثلاث مستقلة تحت رؤساء من أهل البلاد.***

وكان ملك علوة أعظم ملوك تلك الممالك. وقد ازدهرت الكنيسة النوبية لفترة غير قصيرة نجح النوبيون خلالها فى غزو مصر. ويمكن القول إن العصر المسيحى الأول (٥٤٣ – ٥٨٠ م) قد شهد فترة عصيبة عندما غزا ملك مقرة مملكة نباتا، وأتبع هذا الغزو بتوحيد المملكتين كى يستطيع صد غزوات العرب، والتصدى لدخول الإسلام إلى بلاد النوبة. وقد

* المرجع نفسه . الصفحات ٦٦ و٦٧.

** المرجع نفسه . الصفحتان ٦٨ و٦٩ (انظر أيضا . احمد سوكارنو عبد الحافظ . صفحات من تاريخ النوبة . القاهرة . ١٩٩٦ . الصفحات ٣٨ إلى.٤٤)

*** نعوم شقير . تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . الجلد الثانى . الباب الثانى . القاهرة ١٩٥٦ . الصفحات ٣٩ وما بعدها ؛ أحمد سوكارنو . صفحات من تاريخ النوبة . المرجع السابق . الصفحة ٣٨.

كانت المسيحية آنذاك فى أوج ازدهارها، إذ تحولت غالبية المعابد الفرعونية فى شمال النوبة إلى كنائس. كما تم تشييد كنيسة كبيرة فى نافا على مسافة أثنين وأربعين كيلو متراً جنوبى أسوان.*

ويؤكد ذلك ما ورد فى نص معاهدة "البقط" (التى سنتناولها تفصيلاً فيما سيأتى) التى عقدها عبد الله بن سعد بن أبى سرح مع ملك النوبة "لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة ". وهذا يعنى أن مملكة نباتا أو نوباديا ومملكة مقره أصبحتا مملكة واحدة عرفت بأسم النوبة" **

غير أن بعض الجغرافيين العرب ضموا علوة إلى المملكتين السابقتين ليصبح مصطلح النوبة يضم الممالك الثلاث. ومن هؤلاء اليعقوبى: "فأما من قصد من العلاقى إلى بلاد النوبة الذين يقال لهم علوة. فيسير ثلاثين مرحلة، ثم إلى موضع يقال له الأبواب، ثم إلى مدينة علوة العظمى، التى تسمى سوبة، وبها ينزل ملك علوة.... ومن أسوان إلى أول بلاد النوبة الذين يقال لهم مقره."***

وسار على درب هؤلاء أيضاً ياقوت الحموى، وكذلك المسعودى والمقريزى. يقول الحموى: "ولقب ملكهم كابيل، وكتابته إلى عماله وغيرهم: من كابيل ملك مقرة ونوبة." ولكن الحموى لم يضم مملكة علوة إلى النوبة، وجعلها مملكة مستقلة، حيث يقول: "وخلفهم أمة يقال لهم علوا بين ملك النوبة وبينهم ثلاثة أشهر. "ويقول المسعودى:" وأما النوبة فافترقت فرقتين: فرقة فى شرقى النيل وغربيه، وأناخت على شطيه، فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد .... وانسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة، ولحقوا بقريب من أعاليه، وبنوا دار مملكة، وهى مدينة عظيمة تدعى دنقلة، والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة، وبنوا مدينة عظيمة سموها سرية.... فأخبرت أن الملك فى مدينة دنقلة كابل بن سرور... وملكه يحتوى على ماقرة وعلوة، والبلد المتصل بمملكته بأرض أسوان تعرف بمريس." أما المقريزى فيقول: "وأول بلد النوبة قرية تعرف بالقصر من أسوان إليها خمسة أميال، وآخر حصن للمسلمين جزيرة تعرف ببولاق بينها وبين قرية النوبة ميل، وهو ساحل بلا د النوبة."*

---

* أحمد سوكارنو . المرجع نفسه . الصفحتان ٤٢ ، ٤٣ ؛ سعاد ماهر محمد . مدينة أسوان وآثارها الإسلامية . الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والرسائل العلمية ، ١٩٧٧ ، الصفحة ١٠٨ .

**تقى الدين المقريزى . كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (الخطط المقريزية) ،المرجع السابق . الجزء الأول . الصفحة ٢٠٠ .

** * أحمد بن أبى يعقوب . المعروف باليعقوبى . كتاب البلدان . دار إحياء التراث العربى . السلسلة الجغرافية ، ٦ ، ١٩٨٨ . الصفحتان ٩٤ و٩٥.

وكان ملوك النوبة عادة يتخذون بعض شارات الملك، مثل السرير المصنوع من خشب الأبنوس، والتاج المرصع بالأحجار الكريمة، ويعلوه صليب من ذهب، ثم المظلة التى ترفع على رأس الملك فى المواكب. وكانوا يتمتعون بسلطان مطلق على رعاياهم، إذ كانوا يملكون الأرض ومن عليها، ورعاياهم عبيد لهم، لاحق لهم فى امتلاك الأرض أو التصرف فيها ببيع أو شراء. وكانت وراثة العرش النوبى تقوم على النظام الأمومى. " فكان من عادتهم أنه إذا مات ملك وخلف ولدا، وكان له ابن أخت فيملك بعد خاله دون ولد الملك "**

ولكن المسعودى يقول فى ذلك رأيا مختلفاً بعض الشيئ: " وصار أهل مملكة هذا الملك نوعين: نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد، وهم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان، وهى بلاد مريس ". ورأى المسعودى هذا لا يجافى الحقيقة، ومرجعه على الأرجح تغير الأوضاع فى النوبة بعد دخول المسلمين مصر، وهجرة بعض المسلمين إلى النوبة، مما ترتب عليه تحرر بعض أهلها من عبودية ملوكهم. فيقول المسعودى: " ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة .... وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون، حين دخل مصر، على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه أن أناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا أرضاً من ضياعهم من جاورهم من أهل أسوان، وأنها ضياعه والقوم عبيده، ولا أملاك لهم، وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها ... وصار أهل مملكة هذا الملك نوعين: نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد، وهم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان، وهى بلاد مريس "***.

* أبوالحسن المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع ، صيدا – بيروت ١٩٨٧ ، الجزء الثانى ، الصفحتان ١٧ و١٨ ؛ المقريزى ، الخطط المقريزية ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، الصفحة ١٩٠ وما بعدها ؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، الجزء الخامس ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٥٧.

** مصطفى محمد مسعد ، المرجع السابق ، الصفحتان ٨٢ و٨٣.

***المسعودى ، المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٢ و٢٣.

العلاقات بين الولاة المسلمين فى الشمال
والملوك المسيحيين فى النوبة
حملة المسلمين الأولى على النوبة

بعد أن استقرت الأحوال للمسلمين فى بداية ولاية عمرو بن العاص على مصر، اتجه تفكيره إلى استكمال فتح مصر بتوجيه حملة إلى بلاد النوبة المسيحية. وفى ذلك يقول البلاذرى: " حدثنى فلان عن فلان .... قال لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاصى إلى القرى التى حولها الخيل ليطأهم، فبعث عقبة بن نافع الفهرى، وكان أخا العاصى لأمه، فدخلت جيوشهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم ((الصوائف جمع صائفة، وهى الحملة العسكرية فى الصيف). فلقى المسلمون بالنوبة قتالاً شديداً، لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة، فسموا رماة الحدق، فلم يزالوا على ذلك حتى ولى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح*". (الحدق جمع حدقة، وهى السواد المستدير وسط العين).

"حدثنى فلان عن... عن شيخ بن حمير قال: شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب، فلم أر قوماً أحد فى الحرب منهم، لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمى منك، فربما عبث الفتى منا، فقال فى مكان كذا فلا يخطئه، كانوا يكثرون الرمى بالنبل، فلا يكاد يرى من نبلهم فى الأرض شيئ، فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا (صاف القوم الأعداء وقفوا تجاههم مصطفين)، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم، فرمونا حتى ذهبت الأعين، فعدت مائة وخمسين عينا مفقودة، فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح، إن سلبهم لقليل، وإن نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل ينازعهم حتى نزع، وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فصالحهم ".**

---

* البلاذرى ، فتوح البلدان ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٣١.

** المرجع نفسه ، الصفحتان ٣٣١ و٣٣٢.

ويقول أحمد الحفناوى إنه منذ أن تم للمسلمين فتح مصر اتجهت سياستهم إلى فتح السودان لضمان المحافظة على حدود مصر الجنوبية، وتأمين طرق التجارة. فأرسل عمرو بن العاص، عقبة بن نافعه على رأس فرقة من الفرسان سنة ٦٤١ م (٢٢ هـ) لفتح السودان، وأبدى السودانيون (النوبيون) مقاومة عنيفة، مما جعل خسائر المسلمين كبيرة، وحال دون توغلهم جنوباً .... على أن هذه المحاولة انتهت بعقد صلح كان من نصوصه:"أن على النوبيين الذين يدخلون فى صلح مع المسلمين دفع كذا من الرؤوس، وفتح بلادهم لتجارة الصادر والوارد ". ويمضى الحفناوى قائلاً إنه يتضح من هذا النص أن الطرفين اتفقا على عقد هدنة بينهما فى هذه السنوات على غرار ما كان بين مصر والنوبة قبل الفتح العربى لمصر، ولكن ما إن غادر عمرو بن العاص، وخلفه عبد الله بن أبى سرح، حتى نقض النوبيون العهد . وكان لزاماً على الوالى الجديد أن يجرد لهم جيشاً يتوغل هذه المرة فى مملكة المقرة حتى عاصمتها دنقلة العجوز فى سنة ٦٥٢ م (٣٢هـ)*.

ويقول المقريزى: " وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة فى إمارة عمرو بن العاص لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين، وقيل سنة احدى وعشرين ... وكانت النوبة دفعت إلى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكثهم، وأهدوا إلى عمرو أربعين رأسا من الرقيق فلم يقبلها ورد الهدية ... وصارت الأربعون رأسا التى أهديت إلى عمرو يأخذها إلى مصر...".**

ويبدوا أن المقريزى، فى هذه الفقرة، قد انفرد بذكر كلمة البقط منسوبة إلى حملة المسلمين الأولى على النوبة، التى وقعت فى أيام ولاية عمرو بن العاص على مصر، ذلك أنه فى غالبية المراجع ينسب توقيع معاهدة " البقط " إلى حملة عبد الله بن أبو سرح الذى خلف عمرو بن العاص فى ولايته على مصر.

---

* أحمد الحفناوى . سودان وادى النيل فى ظل الإسلام . المرجع السابق . الصفحة ٥٥.

** المقريزى . الخطط المقريزية . المرجع السابق . الجزء الأول . الصفحة ٢٠٠ .

ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح على مصر

عندما مات عمرو بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين كان على مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض (دلتا مصر)، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح على الصعيد (الفيوم). فلما استخلف عثمان بن عفان .... طمع عمرو بن العاص لما رأى من عثمان أن يعزل له عبد الله بن سعد عن الصعيد. فوفد إيه وكلمه فى ذلك. فقال له عثمان ولاه عمر بن الخطاب الصعيد، وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة. وقد علمت أنه أخى من الرضاعة. فكيف أعزله عما ولاه غيرى. فغضب عمرو وقال لست راجعا إلا على ذلك. فكتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد يؤمره على مصر كلها. فجاءه الكتاب بالفيوم ... وكان عزل عمرو بن العاص عن مصر ... وتوليه عبد الله بن سعد فى سنة خمس وعشرين." *

وبذلك يكون عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أصبح فى عهد عثمان بن عفان عاملاً على مصر كلها، صلاتها وخراجها. فوجه بعد تولية الولاية الحملة الثانية إلى النوبة. بعد حملة عمرو بن العاص الأولى، وفى هذه المرة أيضا قاتلته النوبة، وقيل اقتتلوا قتالا شديداً، وأصيبت أعين كثيرين من قادة حملته. فيومئذ سمى أهل النوبة رماة الحدق. فهادنهم عبد الله بن سعد إذ لم يطقهم. ووقع معهم ما عرف بمعاهدة البقط."**

"قال ابن حبيب فى حديثه وإن عبد الله صالحهم على هدنة بينهم على أنهم لا يغزونهم ولا يغزوا النوبة المسلمين، وان النوبة يؤدون كل سنة إلى المسلمين كذا وكذا رأساً من السبى، وأن المسلمين يؤدون إليهم من القمح كذا وكذا، ومن العدس كذا وكذا فى كل سنة . قال ابن حبيب وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق، إنما هى هدنة أمان بعضنا من بعض. قال

---

* ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها . المرجع السابق . الصفحتان ١٧٣ و١٧٤.
** المرجع نفسه . الصفحتان ١٨٨ و١٨٩.
*** المرجع نفسه . الصفحتان ١٨٨ و١٨٩.

ابن لهيعة ولا بأس أن يشترى رقيقهم منهم ومن غيرهم ... وكان الذى صولح عليه النوبة. كما ذكر بعض مشايخ أهل مصر على ثلثمائة رأس وستين رأسا فى كل سنة. ويقال بل على أربعمائة رأس فى كل سنة. منها لفئ المسلمين ثلثمائة رأس وستون رأسا. ولوالى البلد أربعون رأسا. قال فزعم بعض المشايخ إن منها سبعة عشر مرضعاً، ثم انصرف عبد الله بن سعد عنهم."*** هذا وتقول بعض المصادر أن الرؤوس الأربعين التى يأخذها والى البلد (والى أسوان)، هى المقابل للرؤوس الأربعين الى سبق أن أهديت لعمرو بن العاص ورفض قبولها.

عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة

وكتب لهم (ابن أبى سرح) كتاباً نسخته بعد البسملة - عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكة عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة، أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانة وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى صلى الله عليه وسلم أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وأن عليكم رد كل آبق (هارب) خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلياً، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته، وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى أسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو غير الحاكمين. علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك. كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة أحدى وثلاثين."*

* المقريزى . الخطط المقريزية . المرجع السابق . الجزء الأول الصفحة ٢٠٠.

مدلول "معاهدة البقط" وسبب تسميتها

ذهبت المراجع التاريخية مذاهب شتى فى تفسيرها لكلمة البقط ومدلولها وسبب تسميتها. فالمقريزى، وهو أحد المراجع فى هذا الشأن، يقول إن " البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم. فإن كانت هذه الكلمة عربية فهى إما من قولهم فى الأرض بقط وعشب أى نبذ من مرعى. فيكون معناه على هذا نبذة من المال. أو يكون من قولهم أن فى بنى تميم بقطا من ربيعة، أى فرقة أو قطعة. فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ... والبقط ما سقط من التمر إذا قطع فأخطأ المخرف (المخرف وعاء صغير يوضح فيه أطايب التمر). فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة. وكان يؤخذ فى قرية يقال لها القصر ... وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة فى عهد عمرو بن العاص" *.

ومن قائل إن البقط كلمة لاتينية Pact بمعنى العهد والميثاق. وتذهب فى هذا المعنى مراجع كثيرة من بينها دائرة المعارف الاسلامية. إذ جاء بها أن البقط هى الجزية التى كانت تؤديها بلاد النوبة، وربما كانت كلمة فرعونية قديمة معناها عبد. ويستطرد هذا المرجع قائلاً إن البقط ظهرت فى المصنفات العربية اصطلاحاً على الجزية التى كانت تؤديها النوبة المسيحية إلى عامل مصر من قبيل الخلفاء بمقتضى معاهدة رمضان سنة ٣١ هجرية. وكانت أول أمرها ٣٦٠ عبداً، وهو رقم وطريقة للأداء كثيراً ما نجدهما فى تحصيل الجزية فى صدر الإسلام ". ثم تقول " ولم يكن هذا الذى تؤديه جزية بالمعنى الحقيقى لأن المسلمين كانوا يؤدون فى مقابلها كذا وكذا." **

وينقل إبن عبد الحكم عن ابن حبيب قوله: " وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولاميثقاق، إنما هى (البقط) هدنة أمان بعضنا من بعض. " ***

---

* المقريزى . الخطط المقريزية . المرجع السابق . الجزء الأول . الصفحة ٢٠٠.

** دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة القديمة التى قام باعدادها وتحريرها إبراهيم زكى خورشيد . أحمد الشنتناوى . عبد الحميد يونس . دار الشعب . كتاب الشعب . المجلد السابع . مادة بقط . الصفحتان ٤٥٢ و٤٥٣. ويذكر بهذه المناسبة أن الطبعة الجديدة التى أصدرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب لدائرة المعارف الإسلامية . أنما هى ترجمة مبتسرة لا تتجاوز ربع الحجم الأصلى . فضلاً عن انها أسقطت عمداً . ولعلة ليست خافية . مواد كثيرة من دائرة المعارف الاسلامية . ومن بينها مادة " بقط ".

*** ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها . المرجع السابق . الصفحة ١٨٨.

وفى حاشية فى المسالك والممالك لابن جرداذبة: " وليس على النيل أمة إلا وهم عدو للإسلام، ما خلا القبط والنوبة، فإن بينهم موادعة على شروط عثمان بن عفان حين وجه عقبة بن نافع إلى النوبة، فدخلت خيول المسلمين معه إلى بلادهم فلقوا رماة الحدق ففقئت عيون كثيرة فسموا بذلك رماة الحدق، فلما وليهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح صالحهم على ثلاث مائة رأس هدية ليست بجزية ولا خراج، ولهم على المسلمين العوض على الموادعة."*

ويقول المسعودى " " فصار ما قبض منه من السبى سنة جارية فى كل سنة إلى هذه الغاية يحمل إلى مصر، ويدعى هذا السبى (فى العربية) بأرض مصر والنوبة بالبقط، حسب ما جرى به الرسم فى صدر الاسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة ".**

وسعاد ماهر تؤكد بدورها اختلاف المؤرخين فى معنى كلمة " بقط "، فتورد رأى المقريزى الذى أشرت إليه فى الفقرة السابقة، وتورد أيضاً رأيا يقول إنها تحريف لكلمة " قبط "، ورأيا آخر مفاده إنها كلمة مشتقة من كلمة Bak، وهى كلمة مصرية قديمة بمعنى الضريبة التى كانت تجرى فى بلاد النوبة والسودان فى العصر الفرعونى. كما تضيف رأياً يقول إن لفظ بقط مشتق من اللفظ اليونانىPactum، ومعناه عهد أو ميثاق، ولكن سعاد ماهر ترجح فى النهاية أن تكون الكلمة مصرية قديمة يعرفها أهل النوبة من العصر الفرعونى."***

وأما ابن خلدون فكثيراً مايسمى البقط جزية، " ثم غزا (عبد الله بن أبى سرح) بلاد النوبة، ووضع عليهم الجزية الباقية على الأيام، وذلك سنة إحدى وثلاثين."****

ولا بأس من أن نورد نصاً أكثر تفصيلاً: " وقبل عبد الله بن سعد – الذى أنهك القتال جيوشه – عقد الهدنة، واتفق الطرفان على ما عرف بالكلمة المبهمة " بقط ".

---

* ابن جرداذبة ، المسالك والممالك ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.

** المسعودى ، مروج الذهب ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الصفحة ٢١.

*** سعاد ماهر محمد ، مدينة أسوان وآثارها فى العصر الاسلامى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٠.

**** موسوعة العلامة ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب المصرى ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٩٩ ، المجلد السابع ، الصفحة ٦٢٨.

وهى أن يكون بينهما هدنة وأمان... وهذا الاتفاق جعل أهل النوبة فى نظر العرب مصالحين (كما تقول الخطط المقريزية). وهو ما عرفه الفقهاء باسم أهل العهد. فكانت هذه أول مرة يوافق فيها العرب المسلمون على التحالف مع دولة غير إسلامية. والسبب فى هذا أن النوبة لم تهزم . وقد ترتب على عقد هذه الهدنة أن زاد نفوذ الكنيسة المصرية فى النوبة.*

ويمضى فى هذا المنحى مؤرخ آخر " بعد ذلك قام عبد الله بن سعد بغزو النوبة فى سنة ٦٥١ م. ولكن قواه استنفدت وعجز عن مواصلة القتال. مما أدى إلى توقيع اتفاقية البقط. غير أن هذه الاتفاقية لم تحقق لمصر الاسلامية أية سيطرة سياسية على بلاد النوبة المسيحية. بل كانت أقرب إلى معاهدة تبادل اقتصادى بين مصر والنوبة. منها إلى جزية يدفعها النوبيون رمزاً للخضوع. وهى فى الوقت نفسه لم تضع حداً للعلاقات المضطربة بين مملكة النوبة المسيحية ومصر العربية الإسلامية فى العصور الوسطى."**

كذلك لم تلحق بالمسلمين فى سلسلة حروبهم مع مسيحيى النوبة. التى امتدت أكثر من ستة قرون. هزيمة كاملة تقضى على كل أمل لهم فى مواجهة هذا الشعب المقاتل العنيد. وتثنيهم عن تكرار الحملات عليهم. والنوبيون بدورهم لم يتعرضوا لانكسار كامل يرغمهم على الخنوع الكامل للمسلمين. أوالتخلى طواعية عن دينهم. فلقد اقترنت " البقط " على امتداد فترة سريانها بحملات حربية متصلة ليس فيها منتصر ولا مهزوم بالمعنى العسكرى المعروف. بل كانت حرب كروفر لم يحقق فيها المسلمون ما كانوا يبتغونه من نصر كامل على النوبة. وفرض الهيمنة الكاملة عليهم. ولم يحقق فيها النوبيون. ولا كان ممكناً بحكم الواقع والتاريخ أن يحققوا. النصر الذى يكفل لهم العيش فى هدوء وسكينة. محتفظين بالدين الذى ارتضوه لأنفسهم. ودون تحسب لهجمات أخرى فى المستقبل. ومن هنا فإن الحملة التى وجهها عبد الله بن سعد على النوبة. وانتهت بالتوقيع على تلك المعاهدة الغريبة الظالمة. إنما كانت بداية محزنة لأوضاع مدمرة عاناها النوبيون طيلة فترة سريانها.

---

* عبد المنعم ماجد . ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر . دار الفكر العربى . الطبعة الرابعة . ١٩٩٤ . الصفحتان ١٩٦ و١٩٧.

** سعيد عبد الفتاح عاشور . العصر المماليكى فى مصر والشام . مكتبة الأنجلوا المصرية . الطبعة الثالثة . ١٩٩٤ . الصفحتان ٨١ و٨٢.

وهكذا كانت " البقط " بالضرورة حلا تعين الوصول إليه. حلاً حقق للمسلمين بعض الكسب والعوض. وكانت فى الوقت نفسه منجاة للنوبيين من الانكسار الكامل وزوال ملكهم وانحسار دينهم. فكان هذا الحل الفريد والغريب. معاهدة البقط. وهو الحل الذى تراوحت فيه آراء المؤرخين المسلمين. ولم يقل فيه كثرتهم قولة حق. حتى أنهم وصفوه بأنه معاهدة تبادل تجارى بين طرفين يرغم أحدهما بمقتضى شروطه على أن يقدم إلى الطرف الآخر كل سنة. ولفترة غير محددة. أعداداً كبيرة محددة من بضاعة غريبة هى رؤوس البشر. وأن يقدم هذا الطرف الآخر فى المقابل شيئاً من الطعام وبعض متطلبات الحياه. دون أى التزام بكمياته أو نوعيته. وصيغة هذه المعاهدة لم تعرفها معاهدة أخرى على مدار التاريخ. لا فى قسوتها ولا فى غرابتها. ولا فى مدة سريانها. لقد كانت معاهدة شبه أبدية تسرى فى كل عصر وفى كل نظام للحكم. والمثير للدهشة أنه عندما كان يستولى على الحكم فى مصر أفراد نظام جديد. أو فئة حاكمة جديدة. كانوا يسارعون باعلان حقهم الزائف فى جنى ثمار معاهدة لم يكونوا طرفاً فيها. وتحت هذه الدعوى ظلت هذه المعاهدة سارية حتى أيام أبرز سلاطين المماليك البحرية الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثالثة (٧٠٩-١٣٠٩/٧٤١-١٣٤٠). حيث سقطت "البقط" جثة هامدة بغلبة الإسلام والمسلمين على سكان النوبة. وزيادة العناصر العربية بينهم، وتولى ملكها نوبى مسلم.

وفى ذلك تقول سعاد ماهر محمد إن "عمرو بن العاص أعاد الكرة بأن أرسل عبدالله بن أبى سرح بعد فتح مصر بعشرين سنة. فمكث بها زماناً. ثم أمره بالرجوع. أى أن النوبة استعصى فتحها على العرب. وبرغم ذلك عقد ابن أبى سرح اتفاقية البقط ... ومع ذلك فأن البقط لم تحقق لمصر الإسلامية نصراً عسكرياً أو أية سيطرة سياسية. ولم تضع حدًّا للاضطرابات بين الطرفين. بل كانت محلاً لصراع دائم ... وقد حاولت النوبة أكثر من مرة التحلل من شروط اتفاقية البقط. كما كان النوبيون فى سنوات الشدة يلجأون إلى الاغارة على أسوان بغية السلب والنهب. ومن الواضح أن تلك الاغارات النوبية على أسوان كانت تشتد فى أوقات عدم الاستقرار فى مصر. كما حدث فى أواخر عهد الدولة الاخشيدية أو الدولة الفاطمية."*

---

* سعاد ماهر محمد ، مدينة أسوان فى العصر الاسلامى ، المرجع السابق ، الصفحات ١٠ إلى ١٢.

ولم تكن صيغة البقط هى الشكل الوحيد الذى اتخذته عملية جلب الرقيق من بلاد النوبة، بل إن معاهدة الصلح التى عقدها عبد الله بن أبى سرح تنص على السماح للمسلمين بالدخول إلى النوبة لاشتراء الرقيق، ولا تمنعهم إلا من القيام بانتزاع العبيد بأنفسهم بالقوة. وقد تواصل العمل بهذه المعاهدة خلال القرون الموالية لهذه الفترة. ودل استمراره على وجود جلب للرقيق النوبى إلى جانب رقيق البقط. وقد ازدهر هذا التيار التجارى، ولاسيما فى عهدى الطولونيين والإخشيديين، وأصبح الصعيد المصرى معبراً لهذه البضاعة الآدمية. وفى هذا العصر ظهرت قضية الجلاب الذى سنجده باستمرار بعد ذلك.*

ومصداقاً لذلك قول البلاذرى: حدثنا أبوعبيد الله ... عن الليث بن سعد قال: "إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن ... يعطونا رقيقاً، ونعطيهم بقدر ذلك طعاماً، فان باعوا نساءهم وأبناءهم لم أر بذلك بأساً أن يشترى".**

ومعاهدة البقط لم يكن وقعها فى البداية بالغ القسوة على أهل النوبة أنفسهم، على الرغم مما كانت تنطوى عليه من إهدار لكرامتهم واستهانة بآدميتهم. ذلك أن أراضى النوبة كانت محاطة بعشرات القبائل والشعوب التى اعتاد النوبيون الإغارة عليها، وكان يسهل عليهم اجتياحها، وأن يقتنصوا من بين أبنائها كل حاجاتهم من الرقيق. ومن هذا السبى الوفير لم يكن من العسير على النوبيين فى بادىء الأمر أن يسددوا كل سنة تلك الحصة اللعينة من الرقيق التى نصت عليها "معاهدة البقط". والرق للأسف كان مأساه يستبيحها الحكام المسلمون. "أما الرقيق المدفوع (خلاف رقيق البقط) فكانوا يحصلون عليه من غارات كانوا يشنونها على بعضهم بعضاً أو على جيرانهم. فلا غرابة أن يكون الجيش العربى قد لاحظ فقر البلاد، فرأى من الأصلح قبول البقط، والجنوح إلى السلم، وأخذ البضاعة الوحيدة الموجودة بالبلاد، وهى العبيد. وسوف يمتد عمر هذه المعاهدة ويتجدد عبر العصور، وسيكون مصدراً خصباً من مصادر الرقيق الأسود الأفريقى".***

---

* توفيق بن عامر، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، أطروحة دكتوراة، الصفحتان ٦٨ و٢٢٣.

** البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق، الصفحة ٣٣٢.

*** توفيق بن عامر، المرجع نفسه، الصفحة ٦٨.

ويؤكد مكى شبيكة هذه الحقيقة بقوله: "أصبح دفع ثلثمائة وستين من الرقيق سنوياً للمسلمين فى مصر عبثاً ثقيلاً على النوبة. فهم يؤدونه على مضض خوفاً من سطوة الدولة الإسلامية. لأنه استنزاف سنوى لأيديهم العاملة. وربما يحصلون عليه من جاورهم بعد شن الغارات عليهم. وإذا تعذر ذلك يؤدونه من أبنائهم حسب رواية البلاذرى. وولاة المسلمين من جانبهم لم يكونوا يتهاونون فى هذا البقط. فإذا امتنع النوبيون عن أدائه شنوا عليهم الغارات لإرغامهم على دفعه."*

أى أن الرقيق الذى كان يسلم لوالى مصر بموجب معاهدة البقط لم يكن الجانب الأكبر منه فى المراحل الأولى يؤخذ من أبناء النوبة. وإنما كان مصدره أبناء القبائل المجاورة. غير أنه مع مرور السنين كانت غارات النوبة على القبائل المجاورة آخذه فى التراجع. واقترن هذا التراجع بطبيعة الحال بتناقض أعداد السبى الذى كان النوبيون يقتنصونه خلال هذه الغارات. بحيث لم تعد حصيلة غاراتهم تفى بمتطلبات "البقط" التى لم يكن هناك فكاك منها. وفى هذا الوضع الجديد لم يكن أمام النوبة للوفاء بالحصة المقررة سوى أن يستكملوها باسترقاق أبناء جلدتهم. أى أبناء النوبة أنفسهم.

ويتحدث الحفناوى عن هذا التغير الذى طرأ على مصادر رقيق البقط: "وترجع أسباب الحملات الإسلامية على النوبة – فى الغالب – إلى امتناع النوبيين عن دفع البقط. إذ أصبح البقط. أى دفع ثلاثمائة وستين من الرقيق سنوياً للمسلمين. عبئاً ثقيلاً على النوبة. فهم يؤدونه على مضض خوفاً من سطوة الدولة الإسلامية. لأنه استنزاف سنوى لأيديهم العاملة. وربما يحصلون عليه من جاورهم بعد شن الغارات عليهم. وإذا تعذر ذلك يؤدونه من أبنائهم".**

ويستقى الحفناوى روايته هذه من البلاذرى: "وقد ادعوا حديثاً أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة. وأنهم قد طولبوا بذلك فى خلافة المهدى (ثالث الخلفاء العباسيين). فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم. فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا على أولادهم. فاعطوا منهم بهذه العدة".***

*مكى شبيكة . السودان عبر العصور . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٩٦٤ . الصفحة ٢٢.
** الحفناوى . سودان وادى النيل فى ظل الإسلام.المرجع السابق . الصفحة ٦٠.
*** البلاذرى . فتوح البلدان . المرجع السابق . الصفحة ٣٣٣.

وكان اللجوء إلى استكمال حصة البقط المقررة من أبناء النوبة أنفسهم يحيق الدمار بالمجتمع النوبى. فهذه الحصة كان يتعين توريدها من ذكور وإناث فى متوسط العمر، أى زهرة المجتمع وعصبه الإنتاجى. ولم تكن أعداد النوبيين تحتمل الوفاء بالبقط كل سنة. يقول القوصى" ذلك أن ملوك النوبة التزموا بعد حملة ابن أبى سرح بدفع البقط لمصر، وباحترام عقد الأمان الذى عقده لهم. غير أن الأمر يكن يسلم، من وقت لآخر من نقض بعض ملوكهم لهذا العهد وامتناعهم عن تقديم البقط. فالبقط فضلاً عن أنه عبء ثقيل عليهم، فإنه كان يحرمهم من أفضل عناصرهم فى الجيش والأرض، والتى كانت تذهب للخدمة فى بلاط الخليفة أو الوالى فى مصر".*

وبسبب المظالم التى كانت تكتنف عملية الوفاء بحصة البقط، كان النوبيون دائمى السخط والحنق والضجر، ولا يضيعون فرصة للتحلل من شروط البقط . "فكف (عمرو بن العاص) عنهم، وقرر عليهم إتاوة فى كل سنة. قال صاحب العبر: وعلى ذلك جرى ملوك مصر بعده. وربما كانوا يماطلون بذلك ويمتنعون من أدائه. فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يطيعوا، إلى أن كان ملكهم فى أيام الظاهر بيبرس رحمه الله، رجلاً اسمه مرقشنكز. وكان له ابن أخ اسمه داود فتغلب عليه، وانتزع الملك من يده. ... فقدم مرقشنكز المذكور على الظاهر بيبرس بالديار المصرية، واستنجده على ابن أخيه داود المذكور، فجهز معه العساكر إلى بلاد النوبة ... فانهزم داود، ولحق بمملكة الأبواب. فقبض عليه ملكها وبعث به مقيداً إلى الظاهر بيبرس ... واستقر مرقشنكر فى ملك النوبة على جزية يؤديها فى كل سنة ... ولم يزل حتى امتنع كرنبس من أداء الجزية سنة ست عشرة وسبعمائة، فجهز إليه السلطان العساكر.**

كان النوبيون يئنون من فرط الإجحاف الذى تفرضه "البقط"، والخراب الذى تلحقه بمجتمعهم واقتصادهم وتركيبتهم السكانية. ولذلك ففى فترات انتقال السلطة فى مصر من وال إلى آخر أو من سلطان لآخر أو من نظام حكم لنظام آخر، أو فى الفترات التى كانوا يستشعرون خلالها تراخى قبضة الحاكم فى القاهرة، لم يكن النوبيون يتوانون عن محاولة التملص من البقط والتوقف عن توريده. ولكن ما تكاد السلطة فى القاهرة تستعيد توازنها، وتمسك من جديد بزمام الأمور حتى تسارع بتجهيز الحملات "لتأديب" النوبيين لتوقفهم عن الوفاء بهذا الحق المدعى غير المشروع.

---

* القوصى ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، المرجع السابق ، الصفحة ٤٤.

** أبو العباس القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٧٦/٢٧٧.

ودائرة المعارف الإسلامية بدورها تؤكد ذلك: "ويبدو أن النوبيين واظبوا على الوفاء بنصيبهم عن بعد. بسبب نقص أسرى الحروب على الأرجح. وترتب على هذا أنهم اضطروا إلى أن يستبدلوا بالعدد المطلوب من العبيد عدداً من أهل بلادهم. ولعل الحيوانات المطلوبة لحدائق الحيوان أو للتجارب الطبية. والتى شملتها حصتهم فى أزمنة متأخرة. قد سدت مثل هذا العجز".*

ويحكى البلاذرى واقعة بين الخليفة العباسى المهدى (ثالث الخلفاء العباسيين ١٥٨-١٦٩/ ٧٧٥-٧٨٥) والنوبة. فيقول: "وكان المهدى أمير المؤمنين أمر بالزام النوبة فى كل سنة ثلثمائة رأس وستين رأساً وزرافة.على أن يعطوا قمحاً وخل خمر وثياباً وفرشاً أو قيمته. وقد ادعوا حديثاً أن ليس يجب عليهم البقط لكل سنة. وأنهم كانوا طولبوا بذلك فى خلافة المهدى. فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم. فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا على أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة. فرأى أن يحملوا فى ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة".**

ولنأنس أيضاً بما يقوله عطية القوصى: "فقد كان ملوك النوبة يقومون بتقصى الأخبار عن حالة مصر قوة وضعفاً ... فإذا وجدوا الظروف فى صالحهم امتنعوا عن دفع البقط. وهاجموا البلاد منتهزين فرصة ضعفها. وكان ذلك يحدث غالباً فى أوقات الاضطراب وفى فترات الضعف ... غير أن حكام مصر سرعان ماكانوا يردون على هذه الغارات بغارات مماثلة على بلاد النوبة عندما كانت تتهيأ لهم ظروف الإستقرار الداخلى فى البلاد".***

وبسبب الطبيعة الشاذة والغريبة لهذه المعاهدة. ولأنها كانت بغير حدود زمنية. ولا تخص طرفاً بعينه. أو نظام حكم. أو سلطاناً علا شأنه. فقد ساد اعتقاد راسخ لدى الحكام جميعاً أنها معاهدة أبدية. حق أبدى لاينصرم بمرور السنين. ولايحق للنوبيين الإخلال به أو التخلف عن الوفاء بشروطه وأداء البضاعة البشرية التى ينص عليها. وإلا حقت عليهم اللعنة. ووجب التأديب والعقاب.

---

* دائرة المعارف الإسلامية . المرجع السابق . المجلد السابع . الصفحة ٤٥٤ . مادة " بقط ".

** البلاذرى . فتوح البلدان . المرجع السابق . الصفحة ٣٣٣.

*** عطيه القوصى . تاريخ دولة الكنوز الإسلامية . المرجع السابق . الصفحة ٤٥.

ومرة أخرى يقول عطية القوصى: "ذلك أن ملوك النوبة التزموا بعد حملة ابن أبى سراح بدفع البقط لمصر وباحترام عهد الأمان الذى عقده لهم. غير أن الأمر لم يكن من وقت لآخر يسلم من نقض بعض ملوكهم لهذا العهد وامتناعهم عن تقديم البقط. فالبقط فضلاً عن أنه عبء ثقيل عليهم، فإنه كان يحرمهم من أفضل عناصرهم العاملة فى الجيش والأرض، والتى كانت تذهب للخدمة فى بلاط الخليفة أو الوالى فى مصر. وكان توقف ملوك النوبة عن دفع البقط يستدعى قيام ولاة مصر بارسال وفود من قبلهم لتأخذ تعهداً عليهم بدفعه والانتظام فى تقديمه كل سنة. وفى أحيان أخرى – وعلى وجه التخصيص أيام حكم المماليك – كان الأمر يقتضى إرسال تجريدة عسكرية لإرغامهم على دفعه. ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المشتركين فى هذه التجريدات كان يؤثر البقاء فى بلاد النوبة والإقامة فيها".*

لذلك ظلت البقط تنفذ بحذافيرها عقوداً طويلة قاربت السبعة قرون. فقد نفذت كاملة فى عهد ولاة مصر من قبل الخليفتين عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب. وفى عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين، اللهم فى عهد الخليفة المهدى، وفى عهد المعتصم الخليفة قبل الأخير فى العصر العباسى الأول (٢١٨-٢٢٧/٨٣٣-٨٤٢)، اللذين ادعى النوبيون فى عهدهما أنه ليس ينبغى عليهم البقط لكل سنة ... فأمر أن يحملوا فى ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة ". وذلك استثناء لم يكتب له الإستمرار طويلاً. بل إن البقط ظلت تنفذ فى الفترة التى خرج فيها الطولونيون فى مصر على الخليفة العباسى المعتز واستقلوا خلالها بالحكم فى مصر (٢٥٤-٢٩٢/٨٦٨-٩٠٥).

وظلت البقط تنفذ كذلك طيلة الفترة التى خرج فيها الاخشيديون على الخلافة العباسية فى أيام الخليفة العباسى الراضى بالله، واستولوا على الحكم فى مصر (٣٢٣-٣٥٨/٩٣٥-٩٦٩)، وهى فترة استمرت قرابة خمسة وثلاثين عاماً. وتواصل تنفيذها أيضاً فى عهد الفاطميين فى مصر الذى بدأ أثناء حكم الخليفة العباسى المطيع لله. وتجاوز تواصلها هذه المرة أكثر من مائتى سنة هجرية (٣٥٨-٥٦٧/٩٦٩-١١٧١). وفى أعقاب سقوط الخلافة الفاطمية، واستيلاء الأيوبيين على السلطة فى مصر، ظل أداء البقط منتظماً طيلة فترة حكمهم التى استمرت قرابة خمس وثمانين سنة هجرية (٥٦٥-٦٥٠/١١٦٩-١٢٥٢).

* المرجع نفسه ، الصفحة ٤٤.

وتبلغ الغرابة ذروتها عندما يتبين أن المماليك الذين انفردوا بحكم مصر بداية من العام الهجرى ٦٤٨ (١٢٥٠م)، وبرغم أنهم كانوا فى الأصل رقيقاً يباع ويشترى فى الأسواق، كانوا الأشد شراسة وصلفاً وعنفاً، والأكثر حرصا، من كل من سبقهم من حكام مصر وولاتها، على استمرار تدفق هذه "البضاعة البشرية" من رقيق البقط . فقد ظلت معاهدة البقط تنفذ كاملة، وبتمام الصيغة التى وضعها عبدالله بن أبى سرح مع عظيم النوبة، وذلك حتى سنة ٧١٦ هجرية (١٣١٦م)، وقيل سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م)، فى أثناء السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١/١٣٠٩-١٣٤٠) من سلاطين المماليك البحرية.

ولم يكن توقف البقط فى عهد السلطان الناصر محمد زهدا منه فى هذه الغنيمة الجانية، ولا تعففاً عن الإستمرار فى هذه الجريمة، أو يقظة ضمير مباغتة، وإنما – كما سيأتى بيانه _ لأن العروبة والإسلام كانا – لأسباب وتداعيات كثيرة – قد غلبا على التركيبة السكانية للنوبيين، ولأن النوبيين قد فاض بهم الكيل وطفح من قسوة البقط ومظالمها، فأخذوا يتسارعون إلى إعلان إسلامهم، بعض عن إيمان، وبعض عن تطلع إلى الخلاص من أعباء هذه المعاهدة، وماتلحقه بهم من إذلال ومهانة وخراب. ومع انتشار الإسلام وغلبته على سكان النوبة، وتزايد أعداد العرب الذين استوطنوا النوبة، سقطت "الحجة الهمجية" التى كان ولاة مصر وحكامها وسلاطنيها يتذرعون بها لاستمرار أداء النوبة للبقط .

معاهدة البقط
امتداد مسارها من نظام إسلامى إلى النظام الذى يليه

والآن نأتى إلى مقصد هذه الدراسة وجوهرها، والجزء الرئيسى فيها. فنتتبع مسار معاهدة "البقط" منذ توقيعها فى العام الهجرى الحادى والثلاثين، إلى حين توقفها وإسدال الستار عليها فى بدايات القرن الهجرى الثامن، أى أنها امتدت قرابة سبعة قرون هجرية. ثم نلقى الضوء على الفترات القصيرة التى كان النوبيون يتوقفون خلالها عن أداء "البقط"، ودوافعهم لهذا التوقف أو مبرراتهم له، وعلى رد الفعل السريع والحاسم من جانب الولاة والسلاطين المسلمين "لتأديب العصاة النوبيين" وإرغامهم على الإنصياع والعودة إلى الانتظام فى أداء البقط.

يقول المؤرخ المسعودى إن "عمرو بن العاص أبى أن يصالحهم حتى صرف عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبى معلومة، مما يسبى هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب المدعو بملك مريس وغيرها من أرض النوبة . فصار ما قبض منه من السبى سنة جارية فى كل سنة إلى هذه الغاية يحمل إلى صاحب مصر. ويدعى هذا السبى (فى العربية) بأرض مصر والنوبة بالبقط". ويفهم من عبارة "سنة جارية فى كل سنة إلى هذه الغاية"، أن النوبيين ظلوا يقدمون هذا السبى إلى زمن المسعودى، أى إلى ماقبيل استيلاء الفاطميين على مصر فى سنة ٩٦٩/٣٥٨. ومن المعروف أن المسعودى زار مصر فى سنة ٩٤٣/٣٣٢، وتوفى فى سنة ٣٥٧/٣٤٦.*

* أبو الحسن المسعودى . مروج الذهب ومعادن الجوهر . المرجع السابق . الجزء الثانى . الصفحة ٢١ .

ويقول القلقشندى: "قال فى الروض المعطار ... وقرر عليهم إتاوة فى كل سنة. قال صاحب العبر: وعلى ذلك جرى ملوك مصر بعده، وربما كانوا يماطلون بذلك ويمتنعون عن أدائه. فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يطيعوا. إلى أن كان ملكهم فى أيام الظاهر بيبرس رجلاً اسمه مرقشنكز، وكان له أخ اسمه داود فتغلب عليه، وانتزع الملك من يده ... فقدم مرقشنكز المذكور على الظاهر بيبرس فجهز معه العساكر إلى بلاد النوبة، ولحق بمملكة الأبواب من بلاد السودان، فقبض عليه ملكها، وبعث به مقيداً إلى الظاهر بيبرس، فاعتقل بالقلعة حتى مات. واستقر مرقشنكز فى ملك النوبة على جزية يؤديها ... ثم ملكهم أيام الناصر محمد بن قلاوون رجل اسمه أمى، وبقى حتى توفى سنة عشرة وسبعمائة. وملك بعده أخوه كرنبس ... ولم يزل حتى امتنع كرنبس من أداء الجزية سنة ست عشرة وسبعمائة ... وقد ذكر فى الروض المعطار: أن عمرو بن العاص ... قدر عليهم إتاوة من الرقيق فى كل سنة، ولم تزل ملوك مصر تأخذ منهم هذه الإتاوة فى أكثر الأوقات حتى ذكر فى مسالك الأبصار أنه كان عليهم فى زمنه مقرر لصاحب مصر فى كل سنة من العبيد والإماء والوحوش النوبية ... قلت: أما الآن فقد انقطع ذلك".* (صاحب العبر هو عبد الرحمن ابن خلدون، الذى عاش فى الفترة ٧٢٢-١٣٢٢/٨٠٩-١٤٠٦، أى أنه كتب العبر وديوان المبتدأ أو الخبر بعد توقف "البقط" ببضع عشرات من السنين ؛ أما فضل الله أحمد العمرى، صاحب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، فقد عاش فى الفترة ٧٠٠-١٣٠٠/٧٨٦-١٣٨٤، أى أنه عاصر توقف "البقط". وأما أبوالعباس أحمد القلقشندى، صاحب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، فقد عاش فى الفترة ٧٥٦-١٣٥٥/٨٢١-١٤١٨، أى كذلك بعد توقف "البقط" ببضع عشرات من السنين).

ويؤكد ابن خلدون فى موضع آخر من العبر استمرارية سريان "معاهدة البقط" حتى كادت أن تصبح معاهدة أبدية. "ثم غزا عبدالله بن أبى سرح بلد النوبة، ووضع عليهم الجزية المعروفة الباقية على الأيام"** . وفى ذلك أيضاً يقول أحمد شلبى: "وقد ظلت هذه المعاهدة معمولاً بها حوالى ستة قرون". "وكان إيقاف العمل بها (البقط) مدعاة لحملات حربية تقوم بها مصر على النوبة".***

---

* أبو العباس القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، المرجع السابق ، المجلد الخامس ، الصفحات ٢٧٦ إلى ٢٧٨.

** ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المرجع السابق ، المجلد السابع ، الصفحة ٦٢٨.

*** أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٦٢٧.

وتقول سعاد ماهر محمد: "على أن حكام مصر الإسلامية أظهروا من جانبهم تمسكاً كبيراً "بالبقط". ودأبوا على مهاجمة النوبة كلما تأخر ملوكها عن دفع البقط المفروض عليهم".*

أما سيدة اسماعيل كاشف فتقول إن "هذه المعاهدة (البقط) كانت تنقض من حين لآخر. وكان ملوك النوبة يقدمون على غزو الصعيد كلما أحسوا من أنفسهم القوة على هذا الغزو. وظنوا أن الحكومة المصرية لن تستطيع أن تصدهم إلا بعد فترة يتاح لهم فيها أن يظفروا بما يريدون من السلب والنهب".**

ويقول توفيق بن عامر فى أطروحته: "استمر دفع "البقط" فترة طويلة بعد عقدها. وكانت الأساس الذى قامت عليه العلاقات بين بلاد النوبة وبلاد الإسلام فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ".*** ومن المعروف أن أطروحة توفيق بن عامر تتناول تجارة الرقيق فى هذين القرنين.****

وتشير صفاء حافظ إلى أن معاهدة "البقط" ظلت سارية المفعول حتى عهد الدولة الفاطمية ... وأن ملوك النوبة قبل قيامهم بالهجوم على مصر كانوا يتابعون الأحوال بها. فإذا وجدوا الظروف فى صالحهم أقدموا على مهاجمتها. وامتنعوا عن دفع "البقط" ... وقد انقطعت "البقط" باضمحلال النوبة واستيلاء المسلمين عليها. *****

ولا بأس أن نأخذ شيئاً عن ابن الأثير: "وغزا عبدالله بن سعد بعد افريقية الأساود من أرض النوبة سنة واحد وثلاثين. وهو الذى هادنهم على الهدنة الباقية إلى اليوم" ****
]أى الباقية إلى وقت إعداد ابن الأثير لكتابه "أسد الغابة فى معرفة الصحابة". أى بداية القرن السابع الهجرى.

---

* سعاد ماهر محمد . مدينة أسوان وآثارها فى العصر الإسلامى . المرجع السابق . الصفحة ١٧.

** سيدة اسماعيل كاشف . مصر فى عهد الأخشيديين . سلسلة تاريخ المصريين . العدد ٢٩ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . الصفحة ٣٥٨.

*** توفيق بن عامر . الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق . المرجع السابق . الصفحة ٢٢٣.

**** صفاء حافظ عبد الفتاح . السودان وثورتهم فى المدينة المنورة . دار الفكر العربى . ١٩٩١. الصفحة ٧٥.

***** عز الدين بن الأثير . أسد الغابة فى معرفة الصحابة . المجلد الثانى . الصفحة ٢٥٩.

ويشير عطية القوصى إلى أن العلاقات بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية كانت تتقلب بين الصفاء والعداء عبر حقب التاريخ.*

وذلك بفعل عوامل كان من أهمها اتفاق "البقط". ونقض هذا الإتفاق من حين لآخر، وامتناع النوبة عن تقديم البقط، الذى لم يكن مجرد عبء ثقيل عليهم، فقد كان يحرمهم من أفضل عناصرهم العاملة فى الجيش والأرض، والتى كانت تذهب للخدمة فى بلاط الخليفة أو الوالى فى مصر. وكان توقف ملوك النوبة عن دفع البقط يستدعى قيام ولاة مصر بإرسال وفود من قبلهم لتأخذ تعهداً عليهم بدفعة واستمرار تقديمه ... وفى أحيان أخرى ... كان الأمر يقتضى إرسال تجريدة عسكرية لإرغامهم على دفعه. ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المشتركين فى هذه التجريدات العسكرية كان يؤثر البقاء فى بلاد النوبة والإقامة فيها".* وهو ما كان يترتب عليه تصاعد تدريجى فى أعداد العرب المسلمين فى بلاد النوبة، وتغيير تدريجى فى تركيبتها السكانية والدينية.

ويمضى شوقى الجمل فى الاتجاه نفسه، فيقول إن "البقط" ظلت سارية المفعول لأكثر من ستمائة سنة (أى حتى قيام الدولة المملوكية الأولى "دولة المماليك البحرية"). وظلت العلاقات بين مصر والنوبة يتحكم فيها عاملان هما: معاهدة البقط التى نظمت العلاقات السلمية (أى سلم هذا !!) والتبادل التجارى بين البلدين، والصلات الدينية بين بلاد النوبة ومصر، فقد كان مسيحيو النوبة على المذهب اليعقوبى، فكانوا يتبعون الكنيسة المرقسية بالأسكندرية".**

وتبين التطورات التى أعقبت توقيع "معاهدة "البقط" أن توقيعها لم يكن نهاية المطاف فى العلاقات بين المسلمين والنوبيين، وأن "البقط "، طوال فترة سريانها التى امتدت قرابة سبعة قرون، كانت مصحوبة دائماً بتحرشات ومشاكسات، بين كر وفر، بين تمرد وعصيان، ثم خضوع واستسلام. وكانت مقترنة بحكم طبيعتها بامتناع النوبيين لبعض الوقت عن توريد "البقط". ثم عودتهم مرغمين إلى الإنتظام فى توريده لإشباع نهم الحكام المسلمين فى الرقيق. فالنوبيون لم يكونوا يتراخون فى توريد البقط، أو يمتنعون عن توريده.

* عطية القوصى ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، المرجع السابق ، الصفحة ٤٤.
** شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الأول ، ١٩٦٩ ، الصفحتان ٢١٤ و٢٣٥.

كلما لاحت لهم بادرة ضعف فى السلطة الحاكمة فى القاهرة، أو انتقالاً للحكم فيها من سلطة إلى أخرى. ولكن ما أن تستقر الأمور وتهدأ الأحوال حتى تسارع السلطة الجديدة، التى لم تكن لها أصلاً صلة بتوقيع هذه المعاهدة التعيسة، إلى تجريد الحملات العسكرية "لتأديب العصاة"، وإرغامهم على العودة إلى توريد الرقيق.

كانت تلك هى طبيعة الأحداث التى سادت منذ توقيع "معاهدة البقط". وظلت كذلك حتى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون (فى سلطنته الثالثة)، عندما كانت أحوال قد تطورت، وظروف قد نضجت، أصبح من المستحيل معها استمرار المعاهدة، ولاسيما فى عهد نظام حكم لم يكن طرفاً فى توقيعها أو له أية علاقة بها. فتوقفت صلاحيتها، وأسدل عليها ستار النسيان.

يقول النويرى: "أول من غزا النوبة فى الإسلام عبد الله بن أبى سرح فى سنة إحدى وثلاثين ... ثم غزيت فى زمن هشام بن عبدالملك بن مروان (الخليفة الأموى العاشر ١٠٥-١٢٥/٧٢٤-٧٤٣)، ولم تفتح، وإنما كان قتال ونهب وسبى. وغزاها يزيد بن أبى حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ... وغزاها أبو منصور تكين التركى هى وبرقة فى عام واحد، ولم تفتح النوبة ..." *

ويؤكد عطية القوصى ذلك بقوله إن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك كانت له تدخلات فى شئون النوبة سنة ١٢١/٧٣٩، ومنها ما قام به كرياكوس فى هذه السنة من وساطة لدى هذا الخليفة الأموى لرفع ما قام به الوالى عبد الله الحبحاب من اضطهاد للمسيحيين، وطلبه الافراج عن بطريركهم، وإعداده فى نفس الوقت جيشاً قوامه مائة ألف رجل لغزو مصر إذا لم تنفع الوساطة. ولكن هذا الغزو لم يتم بسبب استجابة الخليفة لبعض مطالب ملك النوبة.**

---

* شهاب الدين النويرى . نهاية الأرب فى فنون الأدب . تحقيق عدد من المحققين ومراجعة محمد مصطفى زيادة . مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب . ثم بدار الكتب والوثائق القومية . الجزء الثلاثون . ١٩٩٠ . الصفحتان ٣٤٨ و٣٤٩.

** عطية القوصى . المرجع السابق . حاشية بالصفحة ٤٥.

ومن تداعيات قسوة معاهدة البقط وغرابتها، وشذوذها عن كل الأعراف البشرية، أن النوبيين استشعروا فداحتها وشدة وقعها عليهم، فاستجاروا بالمهدى (ثالث الخلفاء العباسيين ١٥٨-١٦٩/٧٧٥-٧٨٥) أملاً فى تخفيف أعبائها. وفى ذلك يقول البلاذرى: "كان المهدى أمير المؤمنين أمر بالزام النوبة فى كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأساً وزرافة، على أن يعطوا قمحا وخل خمر وثياباً وفرشاً أو قيمته، وقد ادعوا أنه ليس يجب عليهم البقط كل سنة، وأنهم قد طولبوا بذلك فى خلافة المهدى، فرفعوا إليه أن هذا البقط ما يأخذون من رقيق أعدائهم، فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا إلى أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة، فأمر أن يحملوا فى ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة".*

ولكن واقعة توريد البقط لكل ثلاث سنين بدلاً من بقط سنة لم تعمر طويلاً، إذ لم يلبث البقط أن عاد إلى سيرته الأولى، فأصبح من جديد، وكالعادة، يقدم كل سنة، ومع ذلك فقد تكررت مرة أخرى واقعة توريده كل ثلاث سنوات بدلاً من كل سنة فى أيام المعتصم بالله أبى اسحاق بن الرشيد]الخليفة قبل الأخير فى العصر العباسى الأول، وقد تولى الخلافة بعد المأمون، وذلك فى الفترة ٢١٨-٢٢٧/٨٣٣-٨٤٢[.

ويروى المقريزى هذه الواقعة الجديدة بقوله: "ولم يزل النوبة يؤدون البقط فى كل سنة، ويدفع ما تقدم ذكره إلى أيام المعتصم بالله، وكبير النوبة يومئذ زكريا بن بخنس، وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط، فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم، ويمنع إخراج الجهاز إليهم]الجهاز هو الغلال والفرش وغيرها التى كانت تقدم للنوبة إذا ما استوفوا توريد الحصة المقررة من رقيق البقط[، فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكريا على أبيه بذله الطاعة لغيره واستعجزه (اعتبره عاجزاً) فيما يدفع، فقال له أبوه فما تشاء، قال عصيانهم ومحاربتهم، قال أبوه هذا شىء رآه السلف من آبائنا صواباً، وأخشى أن يفضى هذا الأمر إليك فتتقدم على محاربة المسلمين، غير أنى أوجهك إلى مليكهم رسولاً، فأنت ترى حالنا وحالهم، فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة، وإلا سألته الإحسان إلينا، فشخص فيرقى إلى بغداد ... ولقيا (فيرقى ورئيس البجة) المعتصم، فنظرا إلى مابهرهما من حال العراق فى كثرة الجيوش وعظيم العمارة ... فقرب المعتصم فيرقى وأدناه وأحسن إليه إحساناً تاماً وقبل هديته وكافأه بأضعافها، وقال له تمن ماشئت، فسأله فى إطلاق المحبوسين فأجابه وكبر فى أعين المعتصم ... وقرر (المعتصم) دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين، وكتب لهم بذلك كتاباً بقى فى يد النوبة".**

---

* البلاذرى ، فتوح البلدان ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٣٣.

** المقريزى ، الخطط المقريزية ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، الصفحة ٢٠١ .

وتتحدث دائرة المعارف الإسلامية بدورها، تحت مادة "بقط"، عن واقعة توريد "البقط" لكل ثلاث سنوات بدلاً من توريده لكل سنة: "وفى عهدى المهدى والمعتصم نسمع عن تعديلات ثانية. وفى عهد المعتصم، عندما كانت النوبة توشك أن تخالف العهد، وجد أن الجزية (أى البقط) التى كان النوبيون يؤدونها قد انخفضت إلى أقل مما كان يؤديه العرب. وتبين عجز العرب عن حشد القوة اللازمة لتغيير هذا العهد تغييراً جذرياً من انتهاجهم أسلوباً يتسم باللين يسمح للنوبيين بدفع الحصة المشترطة كل ثلاث سنوات فقط*.

ومع ذلك فان الاحتكاكات بين المسلمين والنوبة تواصلت فى الفترة ما بين هذين الخليفتين المهدى والمعتصم، فى أيام المأمون خامس الخلفاء العباسيين (١٩٨-٨١٣/٢١٨-٨٣٣). يقول توفيق بن عامر: "فقد راينا أن العلاقات مع الأمراء النوبيين كانت مقطوعة فى بداية القرن الثالث للهجرة، عندما زار المأمون مصر. وكان ذلك التوتر استمراراً لأربع عشرة سنة مضت من العداء أعقبتها حروب انتقامية، مثل حملة سنة ٢٤١/٨٥٥]فى أيام الخليفة المتوكل أول خلفاء العصر العباسى الثانى[، وحملة سنة ٣٣٩/٩٥١]فى أيام المطيع لله الخليفة الرابع عشر فى العصر العباسى الثانى ٣٣٤-٣٦٣/٩٤٦-٩٧٤، عندما كان الاخشيديون يحكمون مصر**

ويحدثنا المقريزى عن الوقائع التى حدثت فى أيام الخليفة المتوكل، فيقول: "ثم عادوا (النوبيون) إلى غزو الريف من صعيد مصر، وكثر الضجيج منهم إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله، فندب لحروبهم محمد بن عبدالله القمى ... فركب المسلمون أقفيتهم (قفا الحيوان ذبحه من قفاه) وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقتل كبيرهم، فقام من بعده ابن أخيه، وبعث يطلب الهدنة فصالحهم على أن يطأ بساط أمير المؤمنين، فسار إلى بغداد، وقدم على المتوكل بسر من رأى فى سنة إحدى وأربعين ومائتين، فصولح على أداء الإتاوة والبقط، وقدم عليهم أبو عبد الرحمن العمرى بعد محاربته النوبة فى سنة خمس وخمسين ومائتين*** ".]السنة الهجرية المشار إليها فى نهاية هذا النص كانت نهاية حكم المعتز رابع خلفاء العصر العباسى الثانى (٢٥٢-٢٥٥/٨٦٦-٨٦٩) وبداية حكم المهتدى خامس خلفاء هذا العصر (٢٥٥-٢٥٦/٨٦٩-٨٧٠)[.]ومن المعروف أن حملة أبى عبدالله العمرى على النوبة كانت – كما سيأتى بيانه – فى عهد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر.

---

* دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، المجلد التاسع، مادة " بقط "، الصفحة ٤٥٤.

** توفيق بن عامر، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، المرجع السابق، الصفحة ٢٢٣.

*** المقريزى، الخطط المقريزية، المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ١١٩٦.

ويقول مكى شبيكة: "أصبح دفع ثلاثمائة وستين من الرقيق سنوياً للمسلمين فى مصر عبئاً ثقيلاً على النوبة فهم يؤدونه على مضض خوفاً من سطوة الدولة الإسلامية لأنه استنزاف سنوى لأيديهم العاملة ... وولاة المسلمين من جانبهم لايتهاونون فى هذا البقط. فإذا امتنع النوبة عن أدائه شنوا عليهم الحملات لإرغامهم على دفعه ... وفى عهد الخليفة المعتصم كان ملك النوبة زكريا بن بخنس وإبنه جورج. فحرض الإبن الشاب والده على عصيان المسلمين وألا يقبل مذلة أو مهانة بعد اليوم بأدائه البقط. ونتيجة لفورة الشباب وبدافع العزة القومية امتنع النوبيون عن أداء البقط مدة أربعة عشر عاماً تعرضوا خلالها لضغط متزايد من قبل ولاة المسلمين فى الصعيد الأعلى لمصر. ولكن زكريا رأى ألا يبدأ بحرب المسلمين إلا بعد استطلاع أحوالهم ومعرفة مدى قوتهم. وتنفيذاً لهذا رأى أن يبعث بابنه جورج، وهو زعيم المقاومة لنفوذ المسلمين، إلى بلاط الخليفة ببغداد ليشاهد بنفسه قوة المشلمين ويقيس عليها استعداد النوبة لمحاربتهم. وهناك فى عاصمة العباسيين بهرته حضارة المسلمين وقوتهم، واقتنع بأن لا طاقة لهم بمقاومة الدولة العباسية. والمعتصم من جانبه أكرم وفادة ابن ملك النوبة وأحسن معاملته، واتفق معه على تأدية بقط سنة واحدة كل ثلاث سنوات، وأن يستمر المسلمون فى تأدية ماكانوا يرسلونه للنوبة".*

وهكذا نرى أنه فى خلال حكم العباسيين، فى عصريهم الأول والثانى، طرأ مرتين تغير ملحوظ على وتيرة أداء البقط، فأصبح يؤدى كل ثلاث سنوات، بدلاً من أدائه كل سنة. ولكن هذا لم يكن يستمر طويلاً، إذ لا يلبث أن يعود إلى سيرته الأولى. ذلك أن نهم الحصول على الرقيق والجوارى كان أقوى بكثير من تراخى خليفة أو خليفتين، وقبوله، أو قبولهما، تخفيض الحصة المقررة من هذه "البضاعة البشرية". ولاسيما فى فترة تراجع الفتوحات الإسلامية، وبالتالى الانخفاض الكبير فى السبى الذى كانت تعود به هذه الفتوحات، حتى أن شراء الرقيق من أسواقه أصبح المصدر الرئيسى للحصول عليه. ولا يخفى أيضاً أن القبول بتخفيض الحصة المقررة ربما كان مبعثه أيضاً، كما تقول بعض المصادر التاريخية، عجز فى لحظات معينة عن تجريد حملات عسكرية تكفى "لتأديب العصاة" وإرغامهم على الوفاء بشروط البقط والإنتظام فى توريده كل سنة.

* مكى شبيكة ، السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، الصفحتان ٢٢ و٢٣

كذلك نرى أنه خلال هذه الفترة أيضاً، خلال حكم الخليفة المأمون، حدث انقطاع تام عن توريد البقط لمدة أربعة عشر عاماً كاملة، ربما لانشغال الخلافة العباسية بأمور أخرى أكثر أهمية لديها، أو عجز مؤقت عن تجهيز حملات التأديب اللازمة.

ومع ذلك فإنه من الغريب أن الخلافة العباسية، فى عصريها الأول والثانى، لم تكن أقل حرصاً على رقيق البقط من غيرها من أنظمة الحكم الإسلامية، وهى لم تكن طرفاً فى توقيعها، وليست لها حتى شبهة حق فيها، وإنما كانت البقط لقمة سائغة ورثتها ظلماً وعدواناً من عصور سابقة، والأغرب من ذلك كله أن عاصمتها كانت تبعد عن النوبة آلاف الأميال.

الطولونيون والنوبة

أحمد بن طولون (٢٢٠-٢٧٠/٨٣٥-٨٨٤) كان أحد أبرز الشخصيات ذات الأصل التركى التى عملت فى بلاط خلفاء العصر العباسى الثانى. فقد عمل فترة فى كنف هؤلاء الخلفاء. واكتسب ثقتهم. فعينه المعتز (رابع خلفاء هذا العصر) والياً من قبله على مصر. وشغل أحمد بن طولون هذه الولاية لبعض الوقت. ثم أعلن الإستقلال عن الخلافة العباسية فى سنة ٢٦٤/٨٧٧. وانفرد بحكمها حتى وفاته. وورثه بنوه فى حكم مصر بداية من إبنه خمارويه الذى حكم مصر فى الفترة ٢٧٠-٢٨٤/٨٨٤-٨٩٧. ثم أبوالعساكر جيش الذى تولى الحكم سنة ٢٨٢/٨٩٦. ثم أبو موسى هرون بن خمارويه سنة ٢٨٣/٨٩٦. ثم أبو المناقب شيبان بن أحمد آخر سلالة الطولونيين الذى تولى حكم مصر سنة ٢٩٢/٩٠٤. وقد انتهى حكم الطولونيين باستسلام احمد هذا لمحمد بن سليمان قائد الخليفة العباسى المكتفى سنة ٢٩٢/٩٠٥. وانتهى بذلك عصر الطولونيين.

وقد بدأت المصادمات سريعاً بين النوبة والطولونيين. وذلك فى بداية ولاية أحمد بن طولون على مصر من قبل العباسيين. ففى هذه السنة جهز إبن طولون حملة حربية إلى بلاد النوبة والبجة. عهد بقيادتها إلى واحد من أبرز رجاله. هو أبو عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحميد العمرى. واشترك فى هذه الحملة كثيرون من العرب. وبخاصة ربيعة وجهينة. وكان الهدف من هذه الحملة. إلى جانب تدفق البقط وانتظامه. تأمين حدود مصر الجنوبية. كما كان لها هدف رئيسى آخر هو الإستيلاء على مناجم الذهب فى هذه المناطق. واكتشاف مناطق جديدة.*

* مصطفى محمد مسعد . الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى . المرجع السابق . الصفحتان ١٢٤ و١٢٥.

سار العمرى بجيوشه جنوباً فى سنة ٢٥٥/٨٦٨. يقول المقريزى: "والنيل ينعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر. وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف بالشلة. وهو بلد يعرف بشنقير. ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية". واهتدى العمرى إلى مواقع جديدة للتبر قرب شنقير. وتمكن من الحصول على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية لخلق حياة مستقرة فى هذا الإقليم. بعد تغلبه على قوات جورج الأول ملك النوبة.*

وقد استطاع العمرى بفضل شخصيته الدينية الفذة. وغزواته فى بلاد النوبة والبجة. نشر الإسلام والثقافة العربية فيها. وزيادة أعداد العرب الذين استقروا هناك. مما زاد فرص الاختلاط بين سكان البلاد الأصليين والعرب الوافدين. وبعد أن تغلب العمرى على قوات جورج الأول تحرك شمالاً عندما سمع بخروج بعض قبائل الشام عليه. وإقامتهم فى منطقة أدندان باتفاق مع النوبيين. وايقاعهم الهزيمة بقواته. فانسحب شمالاً. واقترن انسحابه هذا باتساع منطقة نفوذه حتى عيذاب شرقاً وحدودها الشمالية أسوان. فخشى أحمد بن طولون على نفسه من اتساع نفوذ العمرى. وأرسل جيشاً لمحاربته. فانهزمت جيوش بن طولون أمام العمرى. وتحرك شمالاً حتى إدفو. غير أنه رأى الرجوع إلى منطقة نفوذه فى المناجم. وانشقت عليه قبيلة ربيعة وحاربته. ولكنه هزمها. وكانت نهايته. كما يقول الحفناوى. على يد اغتالته من قبيلة مضر.**

وفى ذلك يقول اليعقوبى: "وفى هذه السنة (٢٥٨/ ٨٧١ فى أيام المعتمد على الله سادس خلفاء العصر العباسى الثانى) بدأ أمر المعروف بأبى عبدالرحمن العمرى. وأظهر رأسه لمحاربة أصحاب السلطان. ولقى شعبة بن حركان صاحب أحمد بن طولون. فحاربه فى أسوان".***

وقد انتهت المشاحنات بين احمد بن طولون والعمرى باغتيال هذا الأخير. وتفاوتت أقوال المؤرخين حول الظروف والوسائل التى تم بها اغتياله. ونكتفى هنا بما يقوله أبو محمد البلوى: "ثم دخل هذا العمرى إلى بلاد البجة. فقتل منهم مقتلة عظيمة. وضيق عليهم بلادهم. وصار شجاً فى حلوقهم. حتى أدوا له الجزية استكفافاً له.

---

* المرجع نفسه . الموضع نفسه ؛ المقريزى . المرجع السابق . الجزء الأول . الصفحة ١٩١.

** أحمد الحفناوى . سودان وادى النيل فى ظل الإسلام . المرجع السابق . الصفحة ٦٢.

*** احمد بن يعقوب . المعروف اليعقوبى . تاريخ اليعقوبى . المرجع السابق . الجزء الثانى . الصفحة ٥٠٩.

وما أدوها لأحد قبله. فكان لا يعرض لأحد من الناس بأذية لا ذمى ولا ملى. وكان مسالماً للنوبة. للعهد الذى لهم حتى بدا له النوبى الأول الذى بالموضع المعروف بمريس. فعطف عليه العمرى. وأجلاه عن دياره. وحرق مدائنه. وسبى منهم سبياً كثيراً حتى إنه كان الرجل من أصحابه يشترى الحاجة من البياع أو البقال بنوبى أو نوبية. لكثرتهم فى أيدى أصحابه".*

ويستطرد البلوى فى حديثه عن العمرى. فيقول: "ولما وقف أحمد بن طولون على خبر العمرى. وشدة شوكته على البجة وغيرهم. خاف من سوء العاقبة فى أمره إن أغفله. فأنفذ جيشاً عليه قائد يعرف بشعبة بن خركان البابكى. فلما قرب منه خرج إليه العمرى. وقال لأصحابه. لا تعجلوا فان هذا الرجل أعجمى. وأنا اخاطبه بنفسى وأنظر ماعنده ... فلما قرب منه خرج إليه العمرى ... فقال له العمرى: إن الأمير أحمد بن طولون لم يبلغه خبرى على حقيقته. وقدموه عليه فى أمرى ... إنى لم أخرج أبغى فساداً ... وإنما خرجت فى طلب أعداء المسلمين ... فاكفف يدك عن القتال حتى أكتب إلى الأمير. وأكشف له خبرى. ... فإن قبل عذرى. ولم تثقل عليه وطأتى وأمن جانبى. كتب إليك بالكف والانصراف عنى ... وان أمرك غير ذلك امتثلت أمره غير ملوم. فقال شعبة: لست أنا فيما (رسولاً) لك أحمل كتابك. مابينى وبينك إلا السيف. ... فانهزم اقبح هزيمة. وعاد (شعبة) إلى احمد بن طولون فعرفه ما كان. فقال أخطأت وأسأت. كنت قد أمهلته. وكتبت إلينا بخبره على صحته. لنرى فيه رأينا ...".**

"وأهمل أحمد بن طولون أمره مدة. فلما كان بعد شهور يسيرة وافى إلى أحمد بن طولون غلامان زعما أنهما من غلمان العمرى. وأنهما أتياه برأسه. فاستحضرهما الرأس فأحضراه ... قال: فلم قتلتماه ؟ قالا: لأنا أردنا بذلك الحظوة عند الأمير والقرب منه. فقال: ذاك والله أبعد لكما منى ومن الله عز وجل. وأمر بضرب عنقهما. فضربت وصلبت جثتاهما. وأمر برأس العمرى فغسل وكفن وطيب ودفن".***

* أبو محمد عبد الله المدينى البلوى . سيرة أحمد طولون . حققه وعلق عليه محمد كرد على . الهيئة العامة لقصور الثقافة . سلسلة الذخائر . ٥٥ . الصفحة ٦٥.

** المرجع نفسه . الصفحتان ٦٦ و٦٧.

*** المرجع نفسه . الصفحة ٦٧.

الإخشيديون والنوبة

من المعروف أن الإخشيديين استقلوا بحكم مصر قرابة أربع وثلاثين سنة هجرية، فى الفترة ٣٢٣-٣٥٨/٩٣٥-٩٦٩، وذلك خلال خلافة الراضى بالله (٣٢٢-٣٢٩/٩٣٤-٩٤٠)، الخليفة الحادى عشر فى العصر العباسى الثانى، وحتى فترة المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣/٩٤٦-٩٧٤)، الخليفة الرابع عشر فى هذا العصر.

ومابين نهاية عصر الطولونيين وبداية عصر الإخشيديين قرابة واحد وثلاثين عاماً عادت مصر ثانية إلى التبعية للخلافة العباسية. وترجع أهمية عصر الإخشيديين فى تاريخ مصر الإسلامية إلى أنه العصر الذى أرسى فيه أساس استقلال مصر عن الخلافة العباسية، ومهد لفتح الفاطميين لمصر، وقيام حكمهم لها.*

والإخشيديون بدورهم لم يكونوا من طراز يختلف عن طرز من سبقوهم أو من لحقوهم. وفى عهدهم لم يفتر الحرص على رقيق "البقط"، والسعى إلى انتظام النوبة فى توريده للقاهرة. فكان لهم نصيبهم فى الإغارة على النوبة "للتذكير والتأديب". وتقول سيدة كاشف إن معاهدة "البقط" كانت تنقض بين حين وآخر ... وقد كتب المسعودى حين زار مصر سنة ٣٣٢/٩٤٤ أن النوبيين كانوا لايزالون يقدمون السبى الذى اتفق عليه فى البقط، وكان يتسلمه نائب أمير مصر فى أسوان. وحدث فى سنة ٣٣٩/٩٥٠ أن أغار ملك النوبة على اقليم الواحات فقتل عدداً من سكانها وسبى وأحرق وخرب. كما حدث فى ذى الحجة ٣٤٤/٩٥٥ أن أغار ملك النوبة على أسوان، وقتل جمعا من سكانها ونهب قراها، فخرج إليه جيش من قبل أونوجور، وعلى رأسه محمد بن عبدالله الخازن، واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبيين، وأرسل بعض أسراهم إلى

---

* أحمد الحفناوى ، سودان وادى النيل فى ظل الإسلام ، المرجع السابق ، الصفحتان ٦٢ و٦٣.

** سيدة اسماعيل كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين ، المرجع السابق ، الصفحتان ٣٥٨ و٣٥٩.

مصر. فضربت أعناقهم. "**]أونوجور الوارد إسمه هنا هو أبو القاسم أونوجور بن محمد بن طغج الإخشيد. وقد ولى حكم مصر فى الفترة ٣٤٩-٣٥٥/٩٤٦-٩٦٠[."

هذا وقد تعددت الإشارات فى مراجع تاريخية كثيرة إلى غزوات الإخشيديين لبلاد النوبة استحقاقاً للبقط . فيقول النويرى: "ثم غزاها كافور الإخشيدى. وكان أكثر جيشه السودان"*. كما يقول المقريزى فى خططه: "وفى ذى الحجة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة أغار ملك النوبة على أسوان. وقتل جمعاً من المسلمين فخرج إليه محمد بن عبدالله الخازن على عسكر مصر من قبل أونوجور بن الإخشيد فى محرم سنة خمس وأربعين. فساروا فى البر والبحر وبعثوا بعدة من النوبة أسروهم فضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة".**

وكان للشعر دوره هو الآخر. فيقول الشاعر:

ولما غزا كافور دنقلة غدا	بجيش لطول الأرض من مثله عرض
غزا الأسود السودان فى رونق الضحى	فلما التقى الجمعان أظلمت الأرض

ويقول توفيق بن عامر: "وقد تزايد فى زمانه (زمان المسعودى) عدد الرقيق المدفوع. فأضيف عشرون رأساً لعامل أسوان وخمسة رءوس لقاضى البلد ... فكأن الصعيد صار معبراً لهذه البضاعة البشرية التى كان المسلمون يرغبون فيها بشدة. وما من شك فى أن هذا الرقيق النوبى قد ساهم فى تكوين كتائب السود التى وجدت فى جيوش الطولونيين والإخشيديين".***

ولنقرأ أيضا رواية مصطفى مسعد: "وقام النوبيون كعادتهم بإغارة على الواحة الخارجة سنة ٣٤٠/٩٥١. واتبعوها بحملة أخرى على أسوان فى سنة ٣٤٥/٩٥٦. حيث قتل النوبيون جمعاً من المسلمين. فخرج إليهم محمد بن عبدالله الخازن على عسكر من قبل أونوجور بن الإخشيد فى سنة ٣٤٥/٩٥٧. فهزم النوبيين حتى أبريم. وسبى كثيراً من أهلها. وقدم بهم إلى مصر بيد أن هذه الهزيمة لم تضع حداً لهجمات النوبيين على حدود مصر من ناحية الجنوب. فتجددت إغاراتهم على صعيد مصر زمن كافور. وتقدموا شمالاً حتى إدفو منتهزين فرصة اضطراب الأحوال فى مصر وقيام المجاعة بسبب انخفاض مياه النيل. وتعرضها من الشرق

* النويرى .. نهاية الأرب فى فنون الأدب . المرجع السابق . الجزء الثلاثون . الصفحة ٣٤٩.
** المقريزى . الخطط المقريزية . المرجع السابق . الجزء الأول . الصفحة ١٩٨.
*** توفيق بن عامر . الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق . المرجع السابق . الصفحة ٢٢٢.

لتهديد القرامطة. وليس من المستبعد أن تكون هذه الاغارة نتيجة لدعاية فاطمية واسعة الغرض منها إضعاف الإرادة المصرية وشغلها فى أكثر من جهة حتى لا تركز جهودها ضد الزحف الفاطمى من الغرب. ويظهر أن ملك النوبة امتنع عن دفع البقط".*

ومع ذلك لم يكن رقيق البقط " هو الصيغة الوحيدة التى اتخذتها عملية جلب الرقيق من بلاد النوبة. بل إن معاهدة الصلح التى عقدها معهم عبدالله بن أبى سرح سنة ٦٥٢/٣١ لتنص منذ ذلك التاريخ على السماح للمسلمين بالدخول إلى النوبة لاشتراء الرقيق. ولا تمنعهم إلا من القيام بانتزاع الرقيق بالقوة. وقد تواصل العمل بهذه المعاهدة خلال القرون التالية. ودل استمراره على وجود جلب للرقيق النوبى إلى جانب رقيق البقط . وقد ازدهر هذا التيار التجارى بمرور الزمن. وبخاصة فى عهد الطولونيين والإخشيديين ... وفى هذا العصر ظهرت شخصية الجلاب الذى سنجده باستمرار بعد ذلك.

"ولكن هذه الصيغة "السلمية" لم تكن ملازمة دائماً لتجارة الرقيق النوبى. إذ يعلمنا "تاريخ البطاركة" أن العرب لم يحترموا نص المعاهدة الذى يمنع انتزاع التجار للرقيق بالقوة.]تاريخ البطاركة هو عنوان كتاب بالفرنسية عن النوبة وضعه Evetts [. كما نعلم أن الفترات القليلة التى توقف فيها دفع البقط قد كانت فترات صدام بين الجانبين تمكن المسلمون خلالها من شن هجومات على أهل النوبة وبيعهم فى شكل رقيق".**

* توفيق بن عامر . المرجع السابق . الصفحة ٢٢٣.

**مصطفى محمد مسعد . الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى . المرجع السابق . الصفحتان ١٣١ و١٣٢.

البقط فى عهد الفاطميين

فى عهد الفاطميين لم تكن علاقات الشد والجذب، الكر والفر بين المسلمين والنوبة، بالحدة نفسها التى عرفت بها فى العهود السابقة. ومع ذلك فبينما لم يكن الفاطميون أقل حرصاً من سابقيهم على استمرار النوبة فى تقديم الحصة من الرقيق التى قررتها معاهدة "البقط". فانهم كانوا حريصين فى الوقت نفسه على نشر الإسلام فى ربوع بلاد النوبة، وفرض مذهبهم "الشيعى"، وتعزيز موقف العرب الذين سبقت لهم الهجرة إلى هذه البلاد والإقامة فيها. ولتحقيق هذه السياسة المزدوجة كانت لهم بدروهم حملاتهم على بلاد النوبة.

وفى ذلك يقول عبدالمنعم ماجد: "وحينما جاء الفاطميون مصر كان من المنتظر وهى دولة جاءت للجهاد، أن تحارب النوبة المسيحية، ولكن هذا الجهاد لم يوجه ضد النوبة، لوجود اتفاقية البقط السابقة. ثم إنه لم يكن هناك خوف من اتفاق النوبة مع الروم – الأعداء الألداء للإسلام وقتئذ - بسبب اختلاف مذهب كل منهما عن الآخر، ولخضوع النوبة وماحولها لبطريرك مصر القبطى. لذلك سادت علاقات طيبة بين مصر والنوبة بمجىء الفاطميين. فقد أرسل جوهر – قائد الفاطميين – لما فتح مصر رسوله إلى جورج الثانى ملك النوبة، يطالبه بدفع البقط، على أساس أن الفاطميين أصبحوا حكام مصر، فاستجاب ملك النوبة. كذلك كان الآباء البطاركة المصريون يكاتبون ملوك النوبة والحبشة دفعتين فى السنة، بما يعنى استقامة أحوال الكنيسة مع مصر، ويرسلون لهم أساقفة من مصر. واحتياطياً نجد أن الفاطميين يقيمون بصفة دائمة فى ثغر أسوان من ناحية الشلال الأول رجالاً من العسكر مستعدين بالأسلحة لحفظ الثغر وكفالة حكمه لوالى مصرى أو لرئيس قبيلة ربيعة الذى لقب بكنز الدولة منذ عهد الحاكم. بحيث ما لبث أن ظهرت أسرة أو دولة داخل الدولة، عرفت بدولة الكنوز أو الكنوز أو كنوز الدولة، اتخذت أسوان عاصمة لها".*

---

* عبد المنعم ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ، المرجع السابق ، ١٩٩٤ ، الصفحتان ١٩٨ و١٩٩.

وفى ذلك أيضاً يقول مكى شبيكة: "وعندما دخلت جيوش الفاطميين بقيادة جوهر الصقلى مصر سنة ٩٦٩م (٣٥٩هـ)، وعلم جوهر بغارات النوبيين داخل الأراضى المصرية فى أواخر عهد الإخشيديين، وامتناعهم عن دفع البقط. بعث أحمد بن سليم الأسوانى لملك النوبة جورج يطالبه بدفع ما عليه من بقط للدولة الإسلامية فى مصر، وعرف جورج قوة الفاطميين وخضع للأمر وأدى ما عليه. وهناك رواية تقول بأن جوهراً دعا الملك جورج لاعتناق الإسلام. وهذه الرواية محتملة نسبة لما عرف عن الفاطميين من سياسة الدعاية والتوسع".*

ودعما لما سبق يقول أيمن فؤاد سيد: "ففيما يختص بالحدود الجنوبية أرسل جوهر أحد سكان أسوان، هو عبدالله بن أحمد بن سليم الأسوانى، برسالة إلى قيرقى (جورج) ملك النوبة يحثه فيها على إعادة دفع البقط الذى كان قد قطعه فى آخر عهد الدولة الإخشيدية، ويدعوه بحضور شاهدين إلى ترك النصرانية واعتناق الإسلام. ويبدو أن ابن سليم لم يوفق فى مسعاه الأخير، ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة إلى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعلوة ... وهذه الرحلة التى أسماها الأسوانى "أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل" والتى احتفظ لنا المقريزى وابن أياس والمنوفى بنقول منها، هى التى حفظت خبر هذه الرسالة التى أرسلها جوهر إلى ملك النوبة".**

ويؤكد المقريزى على الرواية المتعلقة بابن أبى سليم: " عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى بعثة القائد جوهر بكتابه إلى متملك النوبة يعرض عليه فيه الإسلام ويستأدى ما عليه من البقط، فدعاه إلى الإسلام بحضرة شاهدين أخرجا معه. فكبر ذلك عليه، وجمع علماءه وأساقفته، وأحضر ابن سليم للمناظرة، وقرأ عليه كتاباً جواباً عن الكتاب الوارد معه، يدعو جوهراً إلى النصرانية، ويحتج فيه كما احتج عليه بنسخ الشرائع"***
عن لسان العرب "لابن منظور: استأداه المال والدين ونحوه طلب منه أن يؤديه له.

---

* مكى شبيكه ، السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، الصفحتان ٢٦ و٢٧.

** أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية فى مصر ، تفسير جديد ،الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٠ ، الصفحتان ١٤٨و١٤٩.

*** تقى الدين المقريزى ، كتاب المقفى الكبير ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الطبعةالأولى ، ١٩٩١ ، الجزء الرابع ، الصفحتان ٥٧٤و٥٧٥.

ويقول توفيق بن عامر: "وقد تواصل دفع البقط فى عهد الفاطميين بمصر، إذ كانت علاقاتهم مع النوبة حسنة فى الغالب، وإن كان لهم دور فيما يظهر فى تشويش العلاقة بين النوبة والإخشيديين، مما كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى تعطيل ورود البقط. أما بعد استقرار الفاطميين بمصر فقد ساد الهدوء تلك العلاقات، وكانت الجهود تبذل لتجنب القطيعة حتى فى أقصى الظروف، والتى كان منها الحملة التى شنت على المسيحيين فى عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١/٩٩٦-١٠٢٠)"*

وقد كان هذا المناخ السلمى بين الفاطميين والنوبة ملائماً لإستمرار ورود البقط . ويسجل المقريزى هذا الورود فى الجزءين الأول والثانى من اتعاظ الحنفا: "فى سنة ٣٨٣-٩٩٣، فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله أبى منصور مزار بن المعز لدين الله (٣٦٥-٣٨٦/٩٧٥-٩٩٦)، وصل البقط من النوبة على العادة، ومعهم فيل وزرافة ". وكذلك فى سنة ٣٨٥-٩٩٥، (فى عهد الخليفة نفسه)، "ورد البقط من النوبة". وفى سنة ٤١٥/١٠٢٤، " وصلت هدية من بلد النوبة فيها عبيد وإماء، وخشب أبنوس وفيلة وزرافات". (وذلك فى عهد الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله (٤١١-٤٢٧/١٠٢٠-١٠٣٥). وفى سنة ٤٤٣-١٠٥١ (فى عهد الخليفة الفاطمى أبى تميم معد المستنصر بالله ٤٢٧-٤٨٧/١٠٣٥-١٠٩٤) " جهز الوزير إلى النوبة فأضعف عليهم البقط، وحملوه واستقر الأمر على ذلك" ** (لا نعرف على وجه اليقين ماذا يقصد المقريزى بعبارة " أضعف عليهم البقط "، هل جعله ضعيفاً، أو جعله ضعفين أى مثلين).

ويؤكد بدر الدين العينى بعض هذه الوقائع: "ثم غزاها كافور الإخشيدى، ثم غزاها ناصر الدولة بن حمدان سنة تسع وخمسين وأربعمائة" ***، أى فى عهد المستنصر بالله.

---

* توفيق بن عامر ، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٢٢.

** تقى الدين أحمد المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الطبعةالثانية ، ١٩٩٦ ، الجزء الأول ، الصفحتان ٢٧٩ و٢٨٥ ؛ الجزء الثانى ، الصفحتان ١٤٣و٢٢٢.

*** بدر الدين العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، شيخ المحمودى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ٩٢ ، الصفحة ٦٢.

وإلى جانب رقيق البقط كان باستطاعة المصريين، خلال فترة حكم الفاطميين، أن يستوردوا ما شاءوا من الرقيق النوبى، بل إنهم ظلوا يحصلون على هذا الرقيق من أسواقه حتى السنوات الأخيرة من هذه الفترة. اذ يذكر العمرى أن ملوك دنقلة فى عصره كانوا يدفعون ضريبة لحكام القاهرة تتمثل فى عدد معين من ذكور العبيد وإناثهم، وأن أعظم هدية يقدمونها لضيوفهم وأصدقائهم هى أن يهدوا إليهم عبيداً. ولقد كان نص معاهدة البقط يسمح للمسلمين بالدخول إلى النوبة لاشتراء الرقيق. وقد تعززت فى فترة الفاطميين عملية جلب الرقيق النوبى، وتدعمت شخصية الجلاب. ويقول المؤرخون إن العرب لم يكونوا يحترمون نص هذه المعاهدة الذى يمنع انتزاع التجار للرقيق بالقوة. بل إن الفترات القليلة التى كان البقط يتوقف خلالها كانت فترات صدام بين العرب والنوبة يتمكن الجلابون العرب أثناءها من شن الهجمات على أهل النوبة واصطيادهم وبيعهم كرقيق.*

وفى الجزء الثالث من اتعاظ الحنفا يزودنا المقريزى بوقائع أخرى، فيقول: "فى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وفيها مات كنز الدولة محمد فى ثامن شعبان، وقام من بعده أخوه فخر العرب هبة الله" ** [فى أيام الآمر بأحكام الله أبى على المنصور (٤٩٥-٥٢٤/١١٠١-١١٣٠). وكنز الدولة لقب منحه الفاطميون لحكام النوبة منذ نجح زعيمهم أبو المكارم هبة الله أمير ربيعة فى القبض على أبى ركوة الثائر على زمن الحاكم بأمر الله، وأصبح هذا اللقب حقاً يتوارثه أمراء هذه المنطقة منذ ذلك العهد.***

"وفى سنة إحدى وخمسمائة]فى عهد الخليفة الفاطمى أبى على الآمر بأحكام الله أبى على المنصور[، وفيها وردت الأخبار بأن متملك النوبة قد تجهز براً وبحراً، وعول على قصد البلاد القبلية، فسير الأفضل (ابن بدر الجمالى) عسكرا إلى قوص، وتقدم إلى والى قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة، فورد الخبر بوثوب أخى الملك عليه وقتله، واشتدت الفتنة بينهم حتى باد أهل بيت المملكة، وأجلس صبى فى الملك، فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضل، وتسأله ألا يسير إليهم من يغزوهم، فكتب إلى والى الصعيد الأعلى بأن يسير عسكراً إلى أطراف بلاد النوبة.

---

* توفيق بن عامر، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق، المرجع السابق، الصفحة ٢٢٣.

** المقريزى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، المرجع السابق، الجزء الثالث، الصفحة ٣٥.

*** المرجع نفسه، حاشية بالصفحة نفسها.

وببعث إليهم رسولاً يجدد عليهم القطيعة الجارى بها العادة (البقط). وهى كل سنة ثلثمائة رأس وستون رأسا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم فى السنين المتقدمة. فلما دخلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة. وكتبوا المواضعات (أى الموافقات). وسألوا فى الإعفاء عما يخص السنين. وحملوا ما تيسر لهم. وعادت العساكر كاسبة".*

ويواصل عبدالمنعم ماجد حديثه عن تطور علاقات الفاطميين بالنوبة فيقول: "ومع ذلك ففى خلافة الحاكم حدث سوء تفاهم مع ملك النوبة. بسبب أن هذا الخليفة طبق الشروط العمرية. التى وضعت لتحديد علاقة المسلمين بأهل الذمة. منذ أيام عمر بن الخطاب. فميز القبط واليهود بعلامات مميزة. وهدم كنائس القبط الملكانية. الذين هم على عقيدة بيزنطة. واستولى على أوقافها. ... وفوق ذلك منع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة أو الحبشة .. ولكن الحاكم سرعان ما كف عن تطبيق هذه الشروط. وأعاد للنصارى كنائسهم وأوقافهم. بل وسمح لمن أسلم بالرجوع إلى دينه. وربما يكون تراجع الحاكم لخوفه من أن تساء معاملة المسلمين فى البلاد النصرانية ... ومن الجدير بالذكر أن الحاكم وضع سياسة نشر الإسلام فى النوبة. وشجع أسرة الكنوز العمل على ذلك. وبذلك أصبحت النوبة تعرف باسم بلاد الكنوز".**

هذا وقد بلغت العلاقات الطيبة أوجها بين الفاطميين والنوبة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧-٤٨٧/١٠٣٥-١٠٩٤) بسبب أن أمه كانت نوبية. وهو نفسه كان أسمر اللون. فاستكثر من جند السودان. الذين صار عددهم زيادة على خمسين أو ستين ألفا. ونصفهم من الزنوج والنصف الآخر من عبيد الشراء أى الشرى. أى الذين يشترون بالمال. فقد كان تجار الرقيق يسرقون أبناء البجة لبيعهم للفاطميين. وقد سكنت طوائف السودان فى وقت المستنصر حارات عديدة معروفة فى القاهرة ... وقد سيطر السودان فى دولة الفاطميين إلى وقت سقوطها. حتى أن الخليفة الفاطمى عرف بهم: صاحب السودان. وفى عهد الخليفة المستنصر حينما ترك سلمون النوبى الملك لابن اخته جرجه. ليتفرد هو للعبادة والنسك دعى سلمون إلى مصر ...

---

* المرجع نفسه . الجزء نفسه . الصفحة ٤١.

** عبد المنعم ماجد . ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر . المرجع السابق . الصفحتان ١٩٩ و٢٠٠.

واكرم فى مصر إلى يوم موته. وربما أن الدولة العباسية حرضت ملك النوبة على الامتناع عن دفع البقط (نكاية فى الفاطميين). ولكن ملك النوبة لم يوافق. وعلى العكس أرسل الهدايا إلى سلطان مصر. وبالتالى لم يذهب جيشه إلى النوبة ليؤذى أهلها"*. هذه الفقرة الأخيرة من كلام عبدالمنعم ماجد فيها من المنطق الشيىء الكثير. فالعصا الغليظة فى ذلك الوقت كانت فى يد الفاطميين أصحاب السلطة الفعلية. ولم تكن بطبيعة الحال فى يد الخلفاء العباسيين الذين يعانون الضعف والوهن ويقتربون من النهاية.

"وقد استمرت علاقة النوبة بالفاطميين علاقة ودية. فكان ملك النوبة يرسل البقط. وحتى الهدايا. التى أرسلت إلى العاضد]٥٥٥-٥٦٦/١١٦٠-١١٧١[آخر الخلفاء الفاطميين. كذلك بقى تاريخ النوبة لا يتغير. حتى مجىء المماليك الذين عملوا على غزوها بارسال القبائل العربية نحوها. مما جعلها تتحول إلى الإسلام. وبذلك أصبح السودان جزءاً لا يتجزأ من العالم العربى المسلم. من وقت المماليك".**

* المرجع نفسه . الصفحتان ٢٠٠ و٢٠١.

** المرجع نفسه . الصفحة ٢٠١.

الأيوبيون والنوبة

انتهى عهد الفاطميين فى مصر أثناء حكم آخر سلاطينهم العاضد لدين الله أبى محمد عبدالله (٥٥٥-٥٦٧/١١٦٠-١١٧١)، وذلك عندما تم تعيين صلاح الدين الأيوبى وزيراً على مصر من قبل السلطان نور الدين محمود (٥١٢-٥٧٠/١١١٨-١١٧٤) حاكم حلب وأحد قادة الحروب الصليبية، وباسم المستنجد بالله، الخليفة الثالث والعشرين فى العصر العباسى الثانى (٥٥٥-٥٦٦/١١٦٠-١١٧٠). وقد تولى صلاح الدين السلطة سنة ٥٦٥/١١٦٩، وتوفى سنة ٥٨٩-١١٩٣.

وقد كانت علاقة صلاح الدين الأيوبى، مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر، سيئة مع الجند السودانيين الذين كانوا يشكلون نسبة كبيرة من الجيش، وذلك لأنهم حاولوا إقصاءه من الوزارة فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد. وقد فشلت محاولتهم، لأنه قاومهم بحملة فى سنة ٥٦٨/١١٧٢ قادها شجاع الدين البعلبكى، انتهت بهزيمتهم وفرارهم إلى الصعيد. أما كنز الدولة فقد كان فى هذا الصراع موالياً لصلاح الدين فى حربه مع الجنود السودانيين، على الرغم من أن صلاح الدين كان يتهم بنى كنز بالتشيع للعلوية. ومعنى ذلك أنهم روحياً مع الفاطميين. ولذلك كان من أهداف صلاح الدين، عندما أرسل أخاه توران شاه لغزو بلاد النوبة، القضاء على نفود بنى كنز.*

"وتوغل توران شاه فى النوبة حتى أبريم، ولكن فقر البلاد جعله يكتفى بهذا القدر من التوغل فى البلاد. واقتصر صلاح الدين على إقطاع ذلك الإقليم لأحد أمرائه، مما يدل بوضوح على عدم رغبته فى تمكين بنى كنز من السيطرة عليه.

* مكى شبيكة ، السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، الصفحتان ٢٨و٢٩؛ أحمد الحفناوى ، سودان وادى النيل فى ظل الإسلام ، المرجع السابق ، الصفحة ٦٨.

فثار كنز الدولة، وهجم بجيشه على والى صلاح الدين وقتله. وكانت هناك حركة فى مصر ترمى إلى إعادة الفاطمية. ويعتقد أن كنز الدولة كان على اتصال بزعماء هذه الحركة. وتمكن صلاح الدين من القضاء على تلك الحركة فى مصر، وأرسل أخاه الملك العادل بجيش إلى أسوان، فهزم كنز الدولة وقتله. ونتيجة لذلك رحل بنو كنز عن أسوان، ونقلوا مركز قيادتهم إلى الجنوب فى أرض النوبة، وتم اندماجهم مع سكانها. وازداد تذمر جنود النوبة حين استبدل بهم صلاح الدين عناصر كردية وديلمية، وحاول النوبيون استعادة ملك الفاطميين وبالتالى مكانتهم فى جيشهم.*

ويؤكد شوقى الجمل ما يقوله مكى شبيكة: "هذا ومن المعروف أن الإمارة العربية فى النوبة (إمارة الكنوز) ظلت فى عهد الأيوبيين على ولائها للفاطميين. لذلك كان من الطبيعى أن يقاوم الكنوز صلاح الدين، مؤسس الدولة الأيوبية بمصر، وأن ينضموا إلى الثائرين عليه، فأرسل إليهم أخاه توران شاه فى سنة ٥٦٨/١١٧٣، ثم تابعها بحملة أخرى على رأسها أخوه الملك العادل. وقد استطاعت جيوش صلاح الدين أن تهزم كنز الدولة، مما أدى إلى رحيل الكنوز عن أسوان، وهجرتهم إلى الجنوب، حيث استقروا هناك واندمجوا بين السكان".**

ويقول بدر الدين العينى: "ومنها أنه فى جمادى الأولى]سنة ٥٦٨هـ[غزا توران شاه شمس الدولة بن أيوب – أخو صلاح الدين – بلاد النوبة، بأمر صلاح الدين، وفتح حصناً يقال له أبريم ... ثم جمع السبى وعاد به إلى أسوان، وفرق على أصحابه من غنائم السودان، ... وفى هذه السنة (نفسها) اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا فى أمم عظيمة، قاصدين ملك بلاد مصر، وساروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد أسوان، وحصارها، ونهب قراها، وكان بها الأمير كنز الدولة، فأنفذ يعلم الملك الناصر صلاح الدين، وطلب منه نجدة، فأنفذ إليه قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن خربوا أرضها ... فأتبعهم الشجاع وكنز الدولة، فجرت حرب عظيمة ...ورجع الشجاع إلى القاهرة،وأخبر بفعال العبيد.... فأنفذ صلاح الدين أخاه شمس الدولة فى عسكر كثيف ... ونزل على قلعة أبريم وافتتحها ...

---

* مكى شبيكه، المرجع نفسه ، الصفحة ٢٩.

** شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، الصفحتان ٢٤٤ و٢٤٥.

وغنم جميع ما فيها من المال والكراع (ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤنة) والميرة. وخلص جماعه من الأسرى. وأسر جميع من وجده فيها ... وكتب إلى صلاح الدين بذلك .. وانفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة. وهو مقيم بقوص. ومعه كتاب فيه طلب الصلح. ومع الرسول عبد وجارية".*

وتشير سعاد ماهر محمد إلى حملة صلاح الدين الأيوبى على النوبة بقولها: "على أن حكام مصر الإسلامية أظهروا من جانبهم تمسكاً كبيراً بالبقط. فدأبوا على مواجهة النوبة كلما تأخر ملوكها فى دفع البقط المفروض عليهم. ومن تلك الحملات التى شنها حكام مصر على النوبة الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه فى سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م). والتى أوغلت فى تلك البلاد حتى أبريم. على أنه يبدو فى تفسير حملة صلاح الدين على النوبة أنه من الصعب إرجاع تلك الحملة فقط إلى رغبة صلاح الدين فى إجبار النوبيين على دفع البقط. وربما كان الأقرب إلى الصواب أن صلاح الدين استهدف أيضاً من وراء حملته على النوبة مطاردة بقايا الفاطميين. أو إيهام سيده نور الدين محمود بأنه يسعى لمد نفوذه جنوباً على حساب قوة مسيحية مجاورة. هذا وإن كان هناك رأى يقول بأن صلاح الدين أراد بتلك الحملة أن يختبر مدى صلاحية النوبة لتكون مأوى لأبناء البيت الأيوبى فى حالة تفاقم الموقف بينه وبين نور الدين. غير أن تقرير توران شاه عن أحوال النوبة جعل صلاح الدين ينبذ تلك الفكرة. ويوجه أنظاره إلى اليمن".**

ويقول إبن خلدون: "كان صلاح الدين وقومه على كثرة ارتيابهم من نور الدين. وظنهم به الظنون. يحاولون ملك القاصية عن مصر ليمتنعوا بها إن طرقهم منه حادث ـ أو عزم على المسير إليهم فى مصر. فصرفوا عزمهم فى ذلك إلى بلاد النوبة أو بلاد اليمن. وجهز شمس الدولة توران شاه بن أيوب. وهو أخو صلاح الدين الأكبر. إلى بلاد النوبة. وسار إليها فى العساكر سنة ثمان وستين (١١٧٢/٥٦٨). وحاصر قلعة من ثغورهم ففتحها واختبرها فلم يجد فيها خرجاً ولا فى البلاد بأسرها جباية. وأقواتهم الذرة. وهم فى شظف من العيش ومعاناة للفتن. فاقتصر على مافتحه من ثغورهم. وعاد فى غنيته بالعبدى والجوارى "**.]الغنية أو الغنيان بمعنى الاكتفاء واليسار.

* بدر الدين محمود العينى . عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . العصر الأيوبى . الجزء الأول . دار الكتب والوثائق القومية . ٢٠٠٢ . الصفحتان ١١٢ و١١٣.

** سعاد ماهر محمد . أسوان وآثارها الإسلامية . المرجع السابق . الصفحة ١٣.

ويواصل ابن خلدون قوله فى موضع آخر: "كان أمير العرب بنواحى أسوان يلقب بكنز الدولة، وكان شيعة للعلوية بمصر، وطالت أيامه واشتهر. ولما ملك صلاح الدين قسم الصعيد إقطاعاً بين أمرائه. وكان أخو أبى الهيجاء السمين من أمرائه وإقطاعه فى نواحيهم. فعصى كنز الدولة سنة سبعين (١١٧٤/٥٧٠)، واجتمع إليه العرب والسودان، وهجم على أخى أبى الهيجاء السمين فى إقطاعه وقتله. وكان أبو الهيجاء من أكبر الأمراء، فبعثه صلاح الدين لقتال الكنز، وبعث معه جماعة من الأمراء، والتف له الجند فساروا إلى أسوان، ومروا بالصعيد فحاصروا بها جماعة وظفروا بهم فأستلحموهم، ثم ساروا إلى الكنز فقاتلوه وهزموه، وقتل واستلحم جميع اصحابه، وأمنت بلاد أسوان والصعيد".* استلحم أحاط به الأعداء فى القتال .

وجاء فى صبح الأعشى: "ولما خاف بنو أيوب نور الدين الشهيد صاحب الشام على أنفسهم حين هم بقصدهم، بعث السلطان صلاح الدين أخاه شمس الدولة إلى النوبة ليأخذها لتكون موئلاً لهم إذا قصدهم، فرأوها لا تصلح لمثلهم، فعدلوا إلى اليمن واستولوا عليها، وجعلوها كالمعقل لهم. قال ابن سعيد: ودين أهل هذه البلاد النصرانية".**

ويواصل هذا المرجع نفسه: "كما كتب القاضى الفاضل، عن السلطان" صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الخليفة المستضىء ببغداد ببشرى بفتح بلد من بلاد النوبة والنصره عليها"]المستضىء بالله تولى الخلافة العباسية فى الفترة ٥٦٦-١١٧٠/٥٧٥-١١٨٠ [. "كما كتب القاضى الفاضل عن الملك الناصر" صلاح الدين بن يوسف بن أيوب إلى الخليفة ببغداد، فى البشرى بفتح بلد من بلاد النوبة أيضاً، وانهزام ملكها بعساكره".***

هذا ويرجع بعض المؤرخين الجفوة بين النوبة والأيوبيين وخروجهم عليهم، إلى عزوف صلاح الدين عن استخدام النوبيين فى جيشه، والإستعاضة عنهم بالعناصر الكردية والتركية والديلمية، مما أثار حفيظتهم.

---

* عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المرجع السابق ، الجلد التاسع ، الصفحة ٦٣٠.
** المرجع نفسه ، الجلد نفسه ، الصفحة ٦٣٤.
*** القلقشندى ، صبح الأعشى ، المرجع السابق ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٧٦.

وبالفعل حاول جند السودان إقصاء صلاح الدين عن الوزارة فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله]آخر الخلفاء الفاطميين ٥٥٥-٥٦٧/١١٦٠/١١٧١[, فقاومهم صلاح الدين, كما سبقت الإشارة, بحملة عسكرية قادها شجاع الدين البعلبكى سنة ١١٧٢/٥٦٨, انهزم فيها جند السودان, وفروا إلى الصعيد. وكان كنز الدولة فى هذا الصراع موالياً لصلاح الدين الذى لم يكن يأمن بنى كنز, ويتهمهم دائماً بتشيعهم للفاطميين. ولذا حرص على أن يرسل أخاه توران شاه بجيش لغزو بلاد النوبة والقضاء على نفوذ بنى كنز.*

وإذا كان كنز الدولة قد سبق أن اشترك مع قائد صلاح الدين فى القضاء على حركة المتمردين, فإن ولاء بنى الكنز لم يلبث أن تحول ضد صلاح الدين. وكان ذلك هو الذى دعا صلاح الدين إلى إرسال حملته لغزو بلاد النوبة, وعلى رأسها أخوه توران شاه, ظناً منه أنهم شيعة للعلويين بمصر. وإذا كانت أنباء هذه الحملة قد خلت من إشارة صريحة على قيام توران شاه بعمل عدائى ضد كنز الدولة, فإنه من المعروف أن صلاح الدبن قد أقطع هذا الإقليم لأحد أمرائه, هو الأمير أبو الهيجاء السمين. وقد أثار هذا التصرف كنز الدولة على صلاح الدين, فجمع جيشاً من النوبة والعرب هجم به على من أقطعه صلاح الدين هذا الإقليم. وكانت هناك أيضاً فى مصر حركة تدعو إلى إعادة الدولة الفاطمية, وكان كنز الدولة على اتصال بهذه الحركة.**

وتجمع المصادر التاريخية على أنه لم تكن هناك فيما عدا ذلك أحداث تسترعى أنظار المؤرخين المعاصرين فى تلك الحقبة فيما يتعلق بالعلاقة بين مملكة النوبة المسيحية ودولة الأيوبيين فى القاهرة. ومرجع ذلك عوامل عدة من بينهما رحيل بنى الكنز إلى النوبة الشمالية تاركين إمارتهم عند أسوان لتصبح إقطاعاً حربياً لتوران شاه, ومحاولتهم بناء إمارة ثانية لهم. ولذا كانوا فى حاجة إلى فترة هدوء واستقرار تيسر لهم تحقيق غايتهم. وبذلك انقطعت صلتهم بمصر طوال العهد الأيوبى. ولم يعودوا يشكلون خطراً يهدد الأيوبيين.

* أحمد الحفناوى, سودان وادى النيل فى ظل الإسلام , المرجع السابق , الصفحة ٦٨.

** المرجع نفسه , الصفحة نفسها .

كذلك كان لدى الأيوبيين بدورهم مشاكل كثيرة. ففى الداخل كانت الصراعات والانقسامات الداخلية تمزق البيت الأيوبى. وعلى الجبهة الخارجية كان الأيوبيون مشغولين بالخطر الصليبى الذى كانت مكافحته تستنزف جل جهودهم. ومن هنا لم يكن من الحكمة أن يفتح الأيوبيون جبهة صليبية أخرى فى الجنوب طرفها مملكة النوبة المسيحية. كما كان عليهم أيضاً مواجهة ما عرف بالمشروع الصليبى مع الحبشة ضد مصر، وفكرة التحالف الأوروبى الحبشى، وهى الفكرة التى نشأت فى سنة ١٢٢٢/٦١٩، بعد فشل الحملة الصليبية على دمياط. وإن كان هذا المشروع لم يقدر له أن يتحقق فى عهد الأيوبيين، ولا فى عهد المماليك، بسبب صعوبة تنفيذه.

وفى الوقت نفسه لم يكن القضاء على مملكة النوبة المسيحية يشغل تفكير الأيوبيين، لاسيما أن أمرها قد تضاءل فى ذلك الوقت. كما أن أوصالها قد تقطعت بسبب الصراع بين أمراء بيتها المالك، وبسبب الهجرات العربية المتزايدة إلى بلاد النوبة. فالعرب من جانبهم كانوا يفدون بانتظام على بلاد النوبة، ويعملون سواء بقصد أم بغير قصد على نشر الإسلام فيها. وهكذا كان لتيار الهجرة العربية إلى بلاد النوبة دوره الواضح فى انتشار الإسلام فى هذه البلاد.*

* عطية القوصى ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، المرجع السابق ، الصفحتان ٨ و٨١.

البقط فى عهد سلاطين المماليك

أعقب حكم الأيوبيين فى مصر حكم سلاطين المماليك. وفى عهد سلاطينهم الثلاثة عشر الأوائل لم تطرأ تغيرات كبيرة على الأوضاع فى بلاد النوبة من النواحى الجغرافية والسكانية والاجتماعية. لا سيما من حيث تواصل تيار الهجرة العربية إليها. واقتران تلك الهجرة بالانتشار التدريجى للإسلام فيها. ومع ذلك فأن هذه التغيرات كانت إيذاناً بأن معاهدة البقط كانت فى طريقها إلى زوال. بعد أن ظلت على امتداد قرابة سبعة قرون تحكم العلاقة بين السلطة المسلمة فى القاهرة ومملكة النوبة المسيحية فى الجنوب.

ولم يكن هؤلاء السلاطين الجدد أقل نهما فى رقيق البقط. بل إنهم كانوا أكثر حرصا من سبقوهم على استمرار وروده وانتظامه. وظل تدفق هذه البضاعة البشرية بالاعدادا والأنواع التى قررتها معاهدة لم تكن سبعة قرون كافية لسقوطها. بل أن المصادر التاريخية لم تذكر توقفاً لرقيق البقط إلا فيما ندر. ثم لا يلبث تدفقه أن يعود سيرته الأولى مع كل سلطة جديدة تنقض على حكم مصر. وفى عهد سلاطين المماليك كان الرد دائما عنيفا وقاسياً وبطش غير مسبوق. على كل محاولة للتوقف عن توريد البقط أو للتباطؤ فى توريده. وإلى جانب حرص سلاطين المماليك على استمرار تدفق هذه البضاعة البشرية الجانية. كان هناك دافع آخر هو تأمين حدود البلاد الجنوبية التى كانت تقوم عندها مملكة مسيحية. وبخاصة فى وقت كانت تستعر فيه الحروب الصليبية فى الشمال. لذلك تعددت حملات المماليك على بلاد النوبة. الحملة بعد الأخرى. حتى " انقطعت الجزية بتكاثر العنصر العربى وانتشار الإسلام بين أبناء النوبة ". وحين تولى الملك فى النوبة أمير نوبى مسلم. هو الأمير شكندة. سقطت الحجة الواهية. وأسدل الستار على معاهدة ظالمة.

علاقة الظاهر بيبرس البندقداري بالنوبة

من المعروف أن الحروب الصليبية أتت لتزيد من حدة العداء بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية. وكانت قد تجمعت أمام الظاهر بيبرس البند قدارى (٦٥٩-٦٧٦/١٢٦١-١٢٧٧)، رابع سلاطين المماليك البحرية وأكثرهم شهرة، من المشكلات الخاصة بتثبيت دعائم دولة المماليك، ثم محاربة الصليبيين والمغول، ما كان كفيلاً بصرف بصره عن النوبة ومشكلاتها، ولكن ملوك النوبة كانوا هم البادئين، ذلك أن داود ملك النوبة انتهز فرصة قيام السلطان بيبرس بتوجيه جيوشه ضد أرمينيا الصغرى للقيام بعدوان على مصر سنة ٦٧١/١٢٧٢، فهاجم النوبيون ثغر أسوان، وأسروا أعداداً كبيرة من أهل المسلمين – وعندما علم بيبرس باعتداء ملك النوبة على مصر ثار ثورة كبيرة، وزاد من ثورته أن اعتداء النوبيين هدد دولته فى أعظم موارد ثروتها وقوتها فى ذلك الوقت، وهو التجارة، ذلك أن أسوان وعيذاب كانتا فى ذلك الوقت من أهم الثغور، وتأتى عن طريقهما متاجر الشرق ووسط إفريقية. وإذا كانت الظروف التى أحاطت بالسلطان بيبرس قد جعلته يكتفى بمحاولة صد العدوان النوبى، فليس معنى ذلك أنه غفر للملك النوبة عدوانه الآثم ونقضه شروط البقط "*. وهل هناك ما هو أكثر إثما من استمرار حكام القاهرة طيلة سبعة قرون متصلة فى استنزاف ثروة النوبة البشرية، وتخريب اقتصادها.

ويواصل سعيد عاشور حديثه المتحيز: " ولم تلبث أن اتيحت فرصة طيبة لبيبرس للانتقام من داود ملك النوبة، عندما حضر إلى مصر سنة ٦٧٥/١٢٧٦، شكنده ملك النوبة المعزول، إبن أخت داود الذى حل محله فى الحكم، يطلب مساعدة السلطان بيبرس فى استرداد عرشه. فكان أن أعد الظاهر بيبرس حملة كبرى من ثلاثة آلاف فارس بقيادة الأميرين شمس الدين أقسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم، وصحبتهما شكندة." **

---

* سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٢٢ و١٢٣.

** سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٤ ، الصفحة ٨٥.

ونقرأ هذه الوقائع بلغة القلقشندى: " وعلى ذلك جرى ملوك مصر بعده (أى بعد الله بن أبى سرح)، وربما كانوا يماطلون ويمتنعون عن أدائه (أى أداء البقط)، فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يطيعوا، إلى أن كان ملكهم فى أيام الظاهر بيبرس رجلا اسمه مرقشنكز (شكندة)، وكان له ابن أخ اسمه داود فتغلب عليه، وانتزع الملك من يده، واستفحل ملكه بها، وتجاوز حدود مملكته قريب أسوان.. فقدم مرقشنكز المذكور على الظاهر بيبرس بالديار المصرية، واستنجده على إبن أخيه داود المذكور، فجهز معه العساكر إلى بلاد النوبة، فانهزم داود ولحق بمملكة الأبواب من بلاد السودان، فقبض عليه ملكها وبعث به مقيداً إلى الظاهر بيبرس، فاعتقل بالقلعة حتى مات، واستقر مرقشنكز فى ملك النوبة على جزية يؤديها فى كل سنة."*

أما المقريزى فيروى واقعة الظاهر بيبرس مع مشكد (شكندة) على النحو التالى: " وفيها (سنة ١٢٧٥/٦٧٤ هـ) حضر أبن أخت ملك النوبة وأسمه مشكد (شكندة) متظلماً من داود ملك النوبة، فجرد السلطان معه الأمير أقسنقر الفارقانى بعدة من العسكر... وقاتل الملك داود ومن معه من السودان، فقاتلوه على النجب، وهزمهم وأسر منهم كثيراً... ثم توجه الأمير سنقر فى إثره يقتل ويأسر... ثم واقع الملك داود حتى أفنى معظم رجاله قتلاً وأسراً، وفر داود بنفسه فى البحر.. فساق العسكر خلفه ثلاثة أيام والسيف يعمل فيمن هناك حتى دخلوا كلهم فى الطاعة، وأسرت أم الملك داود وأخته. وأقيم مشكد فى المملكة، وألبس التاج وأجلس فى مكان داود وقررت عليه القطيعة فى كل سنة.. وقرر أن تكون البلاد مشاطرة، نصفها لعمارة البلاد وحفظها، وأن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل للسلطان – وهى قدر ربع بلاد النوبة – لقربها من أسوان،وأن يحمل القطن والتمر مع الحقوق الجارى بها العادة من القديم. "**

---

* القلقشندى . صبح الأعشى . المرجع السابق . الجزء الخامس . الصفحتان ٢٧٦ و٢٧٧ .

** تقى الدين المقريزى . السلوك لمعرفة دول الملوك . دار الكتب العلمية ؛ بيروت – لبنان . تحقيق عبد القادر عطا ١٩٩٧ . الجزء الثانى . الصفحة ٩٤.

ويقول سعيد عاشور: " وبعد أن أقام المماليك شكندة فى الملك بدلاً من داود وألبسوه التاج، نظم القائدان (الفارقانى والأفرم) أسس العلاقة الجديدة بين دولة المماليك ومملكة النوبة على الوجه التالى:

١/ تعهد شكندة بارسال البقط السنوى المعتاد، مضافاً إليه بعض الهدايا...

٢/ يقوم شكندة بجمع أموال الملك السابق داود، وإرسالها إلى مصر محمولة على رؤوس أقارب داود

٣/ تفرض دولة المماليك سيادتها على الجزء الشمالى من بلاد النوبة.. ومعنى ذلك أن سيادة مصر امتدت لأول مرة بصورة فعلية على حوالى ربع بلاد النوبة، أما ما بقى من مملكة النوبة فيصبح مناصفة بين سلطان المماليك وملك النوبة، فيذهب نصف دخل الإقليم إلى السلطان بيبرس والنصف الآخر يبقى لملك النوبة لعمارة البلاد

٤/ خير ملك النوبة بين أحد أساليب ثلاثة عامل بها المسلمون المغلوب – وهى الإسلام أو الجزية أو القتل – فاختار الجزية

٥/ أخذ عشرين من أمراء النوبة ليكونوا رهائن تحت يد السلطان بيبرس.*

وبعد كتابة جميع الشروط السابقة، أقسم شكندة على احترامها، وجاء فى قسمه ما نصه: ".. إنى أخلصت نيتى وطيتى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه، وأننى أبذل جهدى ووقتى فى تحصيل مرضاته، واننى ما دمت نائبه لا أقطع ماقرر على فى كل سنة تمضى ". وأخيراً عادت حملة بيبرس من بلاد النوبة سنة ١٢٧٦/٦٧٤، حيث احتفل السلطان بيبرس بقدومها فى القاهرة احتفالا كبيراً، فخلع على الأميرين القائدين، واستعرض الأسرى والغنائم.... هذا فضلاً عن الرقيق الذين بلغ من كثرتهم أن بيع الواحد منهم بثلاثة دراهم ".**

ويقول سعيد عاشور أيضا إن جمهرة المؤرخين اعترفوا بأن حملة بيبرس على النوبة حققت ما لم تحققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربى لمصر، ويؤيد عاشور ذلك بقول مفضل بن أبى الفضائل من أن ما قام به بيبرس من فتوحات فى بلاد النوبة يعتبر " ما يفوق به على كل ملك تقدمه ". كما يؤيده بمقارنة إبن الفرات بين الغزوات التى قام بها حكام مصر فى بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبرس بقوله " كل هذه غزوات، وإنما الفتح الذى وقع فى زمن الملك الظاهر."***

---

* المقريزى ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها ؛ سعيد عاشور ،العصر المماليكى ، المرجع السابق ، الصفحتان ٨٥ و٨٦

** سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، الصفحتان ٨٦ و٨٧.

*** المرجع نفسه ، الصفحتان ٨٧ و٨٨.

ويمضى سعيد عاشور قائلاً إن الظاهر بيبرس لم يستطع أن ينسى ما حل ببلاده على أيدى النوبيين (ولماذا استطاع أن ينسى ما حل ببلاد النوبة من ظلم وخراب بسبب البقط). فظل يرقب أحوال النوبة عن كثب، ويبدو أنه لم يطمئن إلى شكندة، فعهد إلى أحد الباطنية الفدائية بالتردد على النوبة سراً ومراقبة شكندة وأحواله، خوفاً من أن يغدر بالعهد ويفعل بأسوان وعيذاب مثلما فعل داود... فانقض زميل لهذا الباطنى على شكندة وفتك به فجأة، فجاء ذلك ختاماً لصفحة مثيرة فى تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة – على عهد الظاهر بيبرس.*

ويقول النويرى: " وفى سنة أربع وسبعين وستمائة (١٢٧٥م): كثر تعدى داود متملك النوبة... وحضر إلى قريب أسوان وأحرق سواقى... وتوجه الأمير علاء الدين الخزندار والى قوص إلى أسوان فلم يدركه وظفر بنائبه... وجماعة معه، فجهزهم إلى السلطان فوسطوا (وسط الشيئى قطعه نصفين والتوسيط كان إحدى وسائل الاعدام)... وكان قد حضر ابن اخت ملك النوبة مرمشكد (شكندة) الذى أخذ داود الملك منه، فجهز العسكر المنصور، وتوجه مرمشكد صحبتهم... ثم ساق العسكر والتقوا الملك داود، ومازال السيف يعمل فيهم حتى افناهم، و ما سلم إلا من القى نفسه فى البحر، وهرب داود... وأمسكوا أم الملك داود وأخته، وقرروا على الملك مرمشكد المتوجه صحبة العسكر قطيعة فى كل سنة (البقط)، وعرض على أهل النوبة الإسلام أو القيام بالجزية أو القتل، فأختاروا القيام بالجزية.. وألبس مرمشكد التاج على عادة ملوك النوبة، وأجلس بمكان الملك داود، وحلف اليمين العظيمة عندهم على ما تقرر وهى... وأننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر...وأنى ما دمت نائبهلا أقطع ما قررعلى فى كل سنة تمضى." وعاد العسكر وأحضر من النوبة ما نذكر.. والذى أحضر من الرقيق سبعمائة رأس.. وأما الملك داود فإنه هرب إلى جهة الأبواب، فقابله صاحبها الملك أدر وقتل ولده، وأمسكه وسيره إلى السلطان.**

ويؤكد أحمد الحفناوى الوقائع نفسها بقوله: " بدأت سلسلة متصلة الحلقات من النزاع وإرسال الحملات بين النوبة والمماليك، حيث أرسل السلطان بيبرس سنة ١٢٧٣ م (٦٧٢ هـ) حملة يقودها واليه على قوص، وتقدمت حتى وصلت دنقلة، ولكن داود تقهقر جنوباً، فعادت الحملة بعدد من الأسرى.

---

* سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، الصفحة ٨٨.

** شهاب الدين النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، المرجع السابق ، الجزء الثلاثون ، الصفحات ٣٤٤ إلى ٣٤٨؛ مصطفى محمد سعد ، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٤٦ و١٤٧.

ورأى بيبرس أن يستغل النزاع فى البيت المالك النوبى، حين قدم إلى القاهرة شكندة متظلماً من خاله داود الملك لأنه ادعى أنه اغتصب منه الملك. فجهز بيبرس جيشاً سنة ١٢٧٦ م، وسار معهم شكندة.. وبدأت المقاومة عند الدر.. وتابع الجيش سيره.. وسلم الأرض التى أخضعها الجيش إلى شكندة ليحكمها. وعندما دنت الحملة من دنقلة خرج إليها داود وعشيرته... غير أن النتنيجة كانت هزيمتهم، وفرار داود، وجاء شكندة إلى دنقلة، وتم تتويجه ملكاً على النوبة بنفوذ وسلطة الجيش المملوكى، وكانت هذه بداية الحماية المملوكية على مملكة المقرة..... واكتفى المماليك بأن يكون الجالس على العرش من اختيارهم، وعلى أن يرتبط معهم بعهد يقطعه على نفسه ومعه شعبه. وتعتبر هذه الحملة فتحاً حقيقياً للنوبة لأنها وضعت أسسا جديدة للعلاقات بين البلدين. يدلنا على ذلك الشروط التى قطعها شكندة على نفسه للسلطنة المملوكية، وهى:

١/ أن يتبع الملك شكندة السلطان المملوكى، وأن ينوب عنه فى حكم النوبة
٢/ أن يرسل شكندة نصف ما يجمعه من بلاد النوبة خالصاً للسلطان
٣/ أن يدفع كل بالغ عاقل باق على النصرانية ديناراً عيناً للسلطان.. وأيدت هذه الشروط بيمين حلفه شكندة*

ويقول الحفناوى إن السلطان المملوكى أصبح بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم، وأن حصيلة البلاد النوبية أصبحت بذلك مناصفة بين السلطان والملك النوبى، ويضاف إلى ذلك أن النوبيين استمروا يدفعون البقط القديم إلى جانب وفائهم بما اتفق عليه فى هذه الشروط.** ويؤكد ذلك ما يقوله المقريزى فى خططه:" وألبس شكندة تاج الملك، وأجلس على سرير المملكة بعد ما حلف والتزم أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم، وهو أربعمائة رأس من الرقيق فى كل سنة وزرافة. من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة وستون رأسا، ولنائبه بمصر أربعون رأساً، على أن يطلق لهم إذا ما وصلوا بالبقط تاماً من القمح ألف أردب لمتملكهم وثلثمائة أردب لرسله."***

* أحمد الحفناوى . سودان وادى النيل فى ظل الإسلام . المرجع السابق . الصفحتان ٧١ و٧٢ .
** المرجع نفسه . الصفحة ٧٢.
*** المقريزى . الخطط المقريزية . المرجع السابق . الجزء الأول . الصفحة ٢٠٢.

سيف الدين قلاوون والنوبة

هذا وقد " مات شكندة قتيلا فى سنة ١٢٧٧/٦٧٦، وهى السنة نفسها التى مات فيها الظاهر بيبرس، وربما يكون قتله قد تم بيد بعض المتحمسين لدينهم وقوميتهم من النوبيين، ووثب على عرش النوبة أمير يدعى برك، وكانت الطريقة التى وصل بها إلى العرش مدعاة لعدم اطمئنان السلطان سيف الدين قلاوون، سابع سلاطين المماليك البحرية، والذى أعتلى عرش السلطنة المملوكية فى الفترة ٦٧٩-١٢٧٩/٦٨٩-١٢٨٩، فأرسل حملة إلى بلاد النوبة انتهت بالقبض على برك وقتله، وخلفه على عرش النوبة أمير يدعى سمامون، وجاء تعيين هذا الأمير ملكاً على النوبة تأكيداً لحقيقة أن تعيين ملك النوبة أصبح رهناً بموافقة السلطان المملوكى. " وربما كان هناك ما أقنع السلطان قلاوون بسوء نية الملك سمامون نحوه، ورغبته فى الخروج عليه كذلك، والراجح أن سمامون نكث بالعهود التى ارتبط بها شكندة من التبعية وإرسال الجزية والبقط.*

ويواصل مصطفى مسعد حديثة عن فترة سلطنة سيف الدين قلاوون، بقوله إن السلطان أعد فى سنة ١٢٨٧/٦٨٥ حملة حربية كبيرة لغزو النوبة، وإن هذه الحملة غادرت القاهرة فى العام نفسه، وانقسمت إلى قسمين سار أحدهما متتبعاً البر الغربى للنيل، وسار القسم الآخر فى البر الشرقى، غير أن سمامون – وهو رجل تصفه المراجع بالمكر والدهاء وسعة الحيلة – قرر ألا يلتحم بالجيش المملوكى فى معركة حاسمة، وأمر نائبه جريس بالتراجع أمام الجيش الزاحف، وعندما بلغ هذا الجيش دنقلة، دارت بينهما معركة انتهت بهزيمة النوبيين وفرار سمامون، ولم يقع فى أسره سوى جريس صاحب الجبل وإبن خالة الملك، وتم تعيين إبن أخت سمامون ملكاً على النوبة، وأفرج عن جريس وأعيد إلى منصبه بعد أن أعلن ولاءه للملك الجديد وللسلطنة المملوكية، وتعهد الملك الجديد بدفع البقط القديم والجزية السنوية وسائر الحقوق بدليل ما ذكره القلقشندى: " وأننى ما دمت نائبه لا أقطع المقرر على فى كل سنة تمضى "**

---

* مصطفى محمد مسعد ، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٢ و١٥٣.

** المرجع نفسه ؛ الصفحة ١٥٥ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، المرجع السابق ، الجزء الثالث عشر ، الصفحتان ٢٩٠ و٢٩١.

ونعود مرة أخرى إلى النويرى الذى يقول إنه فى عهد السلطان سيف الدين قلاوون كانت هناك غزوتان لبلاد النوبة. وقعت أولاهما فى سنة ١٢٨٧/٦٨٦. " وذلك أن السلطان الملك المنصور جهز الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط. فلما وصل الجيش إلى أطراف البلاد أخلى سمامون البلاد. وأرسل إلى نائبه بجزائر ميكائيل وعمل الدر. وهو جريس - ويسمى من يتولى هذه الولاية. عند النوبة. صاحب الجبل - فأمره باخلاء البلاد التى تحت يده أمام الجيش. فكانوا يرحلون أمام الجيش منزلة بمنزلة إلى أن انتهوا إلى متملك النوبة بدنقلة... فالتقوا واقتتلوا. فانهزم سمامون. وقتل من أصحابه خلق كثير... فتبعه الجيش إلى مسيرة خمسة عشر يوماً من دنقلة. فأدركوا جريس. فأخذوه. وأخذوا ابن خاله متملك النوبة. فرتب الأمير عز الدين. ابن اخت الملك ملكاً. ورتب جريس فى النيابة عنه... وقدر عليهما قطيعة. يحملونها إلى الأبواب السلطانية كل سنة. وعاد الجيش بعد أن غنموا غنائم كثيرة من الرقيق... ولما فارق الجيش النوبة وعاد. وتحقق سمامون عودهم. رجع إلى دنقلة. وقاتل من بها. وهزمهم واستعاد البلاد. فحضر الملك المستجد جريس... إلى الأبواب السلطانية. وأنهوا ما أتفق من سمامون. فغضب السلطان لذلك. وجرد جيشاً كثيفاً."*

ويمضى النويرى فى الحديث عن تجريد الجيش المملوكى فى المرة الثانية إلى النوبة: " وجرد السلطان (قلاوون) الأمير... إلى النوبة... وجهز معهم متملك النوبة. ونائبه جريس... سنة ١٢٨٩/٦٨٨.... ولما وصل العسكر إلى ثغر أسوان مات متملك النوبة... وطالع الأمير... السلطان بذلك. فأرسل إليه من أولاد أخت الملك داود رجلاً. كان بالأبواب السلطانية ، ورسم له أن يملكه بالنوبة... وتوجهوا ورسموا الجريس نائب النوبة أن يتقدمهم. منزلة منزلة. ومعه أولاد الكنز أمراء أسوان. ليطمئنوا أهل البلاد ويؤمنوهم. ويجهزوا الإقامات للعسكر... إلى أن انتهوا إلى مدينة دنقلة. فوجدوا الملك قد أخلاها... فعرضوا على الملك الدخول فى الطاعة والحضور. وبذلوا له الأمان. فأبى ذلك... وأوهموه أنهم يعدون إليه ويقاتلونه. فانهزم من الجزيرة إلى جهة الأبواب... ففارقه من كان معه من السواكرة (أمراء النوبة). وفارقه أيضا... وطلبوا الأمان. ودخلوا تحت الطاعة. فأمنهم عز الدين المتولى....فلما أكلوا الطعام ملكوا الملك الواصل من الأبواب السلطانية. وألبسوه التاج. وحلفوه للسلطان. وحلفوا له أهل البلاد. وتقرر عليهم البقط المستقر أولا. والبقط هو المقرر... وعاد العسكر إلى القاهرة سنة تسع وثمانين وستمائة. (١٢٩٠ م) * أى فى أيام السلطان سيف الدين قلاوون.

* شهاب الدين النويرى . نهاية الأرب فى فنون الأدب . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مركز تحقيق التراث . الجزء الحادى والثلاثون . الصفحات ٣٩ إلى ٤١.

"فلما عاد العسكر من دنقلة، حضر سمامون إليها ليلاً، وصار يقف على باب كل سوكرى بنفسه ويستدعيه. فإذا خرج وراه، قبل الأرض بين يديه وحلف له. فما طلع الفجر حتى ركب معه جميع العسكر النوبى. فزحف بهم على دار الملك، وقبض على الملك... واستقر الملك سمامون بدنقلة. وأخذ الملك الذى ملكه العسكر فعراه من ثيابه، وذبح ثوراً، وقد جلده سيوراً، ولفها عليه طرية، وأقامه مع خشبة، فيبست عليه تلك السيور فمات. وقتل جريس أيضا. وكتب سمامون إلى السلطان الملك المنصور (قلاوون) يستعطفه ويسأله العفو عنه، والتزم أن يقوم بالبقط المقرر فى كل سنة، وزيادة عليه، وأرسل من الرقيق والتقادم عدة كثيرة. فوصل ذلك فى أواخر الدولة المنصورية. وحصل اشتغال السلطان بما هو أهم من النوبة. فاستقر سمامون بالنوبة إلى أيام العادلية الزيتية كتبغا." *(المقصود بالعادلية الزيتية كتبغاً هنا هو السلطان زين الدين كتبغا عاشر سلاطين المماليك البحرية، وقد تسلطن فى الفترة ٦٩٤ – ١٢٩٤/٦٩٥ – ١٢٩٦. قد الشيئ قطعه مستطيلاً.)

ونستزيد أيضاً برواية المقريزى الذى يحدثنا عن تطور الأمور إلى الأسوأ بين سمامون والسلطان قلاوون الذى اقتنع بسوء نية سمامون نحوه، بل وبرغبته فى الخروج عليه. وكان من الواضح أن سمامون نكث بالعهود التى ارتبط بها شكندة من التبعية وإرسال الجزية والبقط. وكان ذلك سبب إعداد قلاوون حملته الثانية على النوبة التى سبقت الإشارة إليها. يقول المقريزى: " ففى سادس ذى الحجة (من سنة ست وثمانين وستمائة) توجه الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط متولى القاهرة، والأمير عز الدين الكورانى، إلى غزو بلاد النوبة. وكتب إلى الأمير عز الدين أيدمر أن يسير معهما. فلما وصل العسكر إلى أطراف بلاد النوبة أخلى ملك النوبة سمامون البلاد، وكان صاحب مكر ودهاء وعنده بأس... وأرسل سمامون إلى نائبه – واسمه جريس – يأمره باخلاء البلاد التى تحت يده أمام الجيش الزاحف.... حتى وصلوا إلى ملك النوبة بدنقلة. فخرج سمامون، وقاتل الأمير عز الدين أيدمر قتالاً شديداً، فانهزم ملك النوبة.... فتبع العسكر ملك النوبة... إلى أن أدركوا جريس وأسروه... فرتب الأمير عز الدين فى مملكة النوبة إبن أخت الملك، وجعل جريس نائباً عنه وجرد معهما عسكراً، وقرر عليهما قطيعة يحملانها فى كل سنة، ورجع بغنائم كثيرة ما بين رقيق وخيول وجمال ، وأبقار وأكسية. "*

---

* المرجع نفسه ، الجزء نفسه ، الصفحتان ٤٥ و٤٦.

ونورد هنا نص يمين حلف عليها ملك النوبة للسلطان قلاوون عند استقراره نائباً عنه فى بلاد النوبة: "والله والله والله وحق الثالوث المقدس، والانجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور، والمعمودية، والأنبياء، والرسل، والحواريين، والقديسين، والشهداء الأبرار وألا أجحد المسيح كما جحده بودس، وأقول فيه ما يقول اليهود، وأعتقد ما يعتقدونه، وألا أكون بودس الذى طعن المسيح بالحربة – أنى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك فلان، وأنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته، واننى ما دمت نائبه لا أقطع المقرر فى كل سنة تمضى، وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصاً من كل حق، والنصف الآخر مرصداً لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها، وأن يكون على فى كل سنة كذا وكذا، وإننى أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا . واننى لا أترك شيئاً من السلاح ولا أخفيه، ولا أمكن أحداً من إخفائه، ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو عن شيئ من هذا المذكور أعلاه كله ، كنت بريئاً من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلى إلى غير الشرق، وأكسر الصليب، واعتقد ما يعتقده اليهود، واننى مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به السلطان من وقته وساعته، ولا انفرد بشيئ من الأشياء إذا لم يكن مصلحة،وأننى ولى من والى السلطان، وعدو من عاداه، والله على ما نقول وكيل."**

وكانت لا تزال فى جعبة السلطان قلاوون بقية، فقد ظل حتى العام لأخير من سلطنته (١٢٨٩/٦٨٩) شديد الحرص على إحكام سيطرته على النوبة، وضمان انتظام ورود البقط واستمراره." وفى سنة تسع وثمانين وستمائة وصل والى قوص بمن معه إلى تجاه الجزيرة التى بها سمامون ملك النوبة، فرأوا بها عدة من مراكب النوبة، فبعثوا إليه فى الدخول فى الطاعة وأمنوه فلم يقبل. فأقام العسكر تجاهه ثلاثة أيام، فخاف من مجئ الحراريق والمراكب إليه، فانهزم إلى جهة الأبواب..... ففارقه السواكرة وهم الأمراء، وفارقه... وسألوا الأمان فأمنهم والى قوص وخلع على أكابرهم، وعادوا إلى مدينة دمقلة وهم جمع كبير.. ثم ملكوا الرجل الذى بعثه السلطان قلاوون وألبسوه التاج، وحلفوا سائر الأكابر وقرروا البقط المستقر أولا، وعينوا طائفة من العسكر تقيم عندهم وعليها بيبرس العزى مملوك الأمير عز الدين والى قوص...

---

* المقريزى . السلوك لمعرفة دول الملوك . المرجع السابق . الجزء الثانى .الصفحة ١٩٩؛ مصطفى محمد مسعد . الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى . المرجع السابق . الصفحتان ١٥٥ و١٥٦.

** القلقشندى . صبح الأعشى . المرجع السابق . الجزء الثالث عشر .الصفحتان ٢٩٠ و٢٩١.

وأما سمامون فإنه عاد بعد رجوع العسكر إلى دمقلة متخفياً... وزحف سمامون بعسكره على دار الملك، وأجزح بيبرس ومن معه إلى قوص، وقبض على الذى تملك موضعه وعراه من ثيابه، وألبسه جلد ثور كما ذبح بعد ما قده سيوراً ولفها عليه، ثم أقامه مع خشبة وتركه حتى مات، وقتل جريس أيضاً. وكتب سمامون إلى السلطان يسأله العفو، وأنه يقوم بالبقط المقرر وزيادة، وبعث رقيقاً وغيره تقدمة فقبل منه، وأقره السلطان بعد ذلك بالنوبة."*

بيد أن أحوال سمامون هذه المرة لم تكن هى نفسها التى كانت فى المرة الأولى من حيث وفرة الملتفين حوله، كما أن الأسقف والقسس الذين كانو حوله فارقوه، وطلبوا الأمان بعد تطهير البلاد من مظاهر العصيان... واحتل الجيش دنقلة.. ونصبوا الملك الجديد بالطريقة التقليدية... وتوطدت السيادة المملوكية فى بلاد النوبة مرة أخرى. ومع ذلك فإن سمامون لم يكد يسمع بوفاة السلطان قلاوون، وتولى السلطنة ابنه خليل بن قلاوون (٦٨٩-١٢٨٩/٦٩٣-١٢٩٣)، حتى امتنع عن دفع الجزية والبقط للسلطان الجديد، معتذراً عن تأخيرهما إلى السنة التالية، ومتعللاً بالغارات الخارجية على بلاده، والخراب الذى الحقته بها الحملات الاسلامية... وأعقب ذلك برسالة إلى خليل بن قلاوون يسأله العفو، ويتعهد بحسن السلوك ودفع الالتزامات.**

* المقريزى ، السلوك ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الصفحتان ٢١٥ و٢١٦.

** المرجع نفسه ، الصفحتان نفساهما ؛ أحمد الحفناوى ، سودان والى النيل فى ظل الإسلام ، الصفحتان ٢١٥ و٢١٦ ؛ محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٥١ و١٥٢.

السلطان خليل بن قلاوون

ولكن السلطان خليل بن قلاوون لم يقبل هذه الأعذار، وأرسل ينذره بالعقاب الصارم. عندئذ أسرع سمامون يسأله الأمان، ويعده بارسال البقط سريعاً. فقبل السلطان هذا الوعد، كما اتفق على أن تكون والدة سمامون وبقية أهله رهائن فى القاهرة بدار الضيافة. وبعد ذلك بقليل أرسل سمامون أخاه برسالة للسلطان يستعطفه فيها، ويطلب منه إرسال والدته إليه، قائلا فى رسالته " إن ملوك النوبة لا يدبرهم إلا النساء". وهنا ضاق السلطان خليل ذرعا بمراوغة سمامون، فعزم على تجهيز حملة لعزله والقبض على أمير نوبى يدعى آنى لخروجه على السلطان."*

وأعد خليل بن قلاوون حملة بقيادة عز الدين الأفرم، الذى سبق له قيادة الحملة التى جردها السلطة الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ / ١٢٧٦، وبذا كانت له خبرة ببلاد النوبة وأحوالها. وتوغلت الحملة جنوبى دنقلة فى مطاردة للثائر آنى الذى لجأ إلى منطقة فى شمال كردفان، ثم عادت إلى دنقلة بغنائم وأسلاب، وأسرى كثيرين من أبناء النوبة. أما سمامون فلم يعد له ذكر، ويرجح أنه مات قتيلاً. وكالعادة أرسل السلطان خليل من القاهرة أميراً نوبيا يدعى بدمة لمحاربة الأمير آنى، ولتنصيبه ملكاً على النوبة... فالبس التاج بعد أن أقسم يمين الولاء والطاعة للسلطان، وتبعه جريس الذى كان أخاً لسمامون – وهو غير جريس الذى سبقت الإشارة إليه – فأقسم بدوره يمين الولاء والطاعة نظراً لتعيينه نائباً لبدمة... كما حلف النوبيون بدورهم يمين الولاء لملكهم الجديد شريطة ولائه للسلطان المملوكى."**

---

* أحمد الحفناوى ، سودان وادى النيل فى ظل الإسلام ، المرجع السابق ، الصفحتان ٧٦ و٧٧.

** المرجع نفسه ، الصفحة ٧٧.

ويبدو أن الحملات التى أرسلها سلاطين المماليك إلى النوبة، منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى قد أفلحت فى جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطنة المماليك فى القاهرة، ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين الحين والآخر لسلاطين المماليك، ويحتكمون إليهم فيما ينشب بينهم من خلافات. من ذلك مجئ أماى ملك النوبة، فى سنة ٧،٤/١٣٠٤، يحمل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون (فى أثناء سلطنته الثانية ٦٩٨ – ١٢٩٨/٧٠٨ – ١٣٠٨) هدية كبيرة من الرقيق والهجن والبقر، ويطلب معاونته ضد منافسيه وأعدائه، وقد استجاب الناصر محمد لنداء ملك النوبة، فأرسل معه تجريدة عادت إلى القاهرة فى السنة التالية، بعد غيبتهم تسعة أشهر ومقاساة أهوال فى محاربة السودان وقلة الزاد." *

وعن مراوغات سمامون يحدثنا مصطفى مسعد، نقلا عن مخطوطة تاريخ قلاوون، " غير أن هذه المراوغة (من جانب سمامون) أثارت السلطان خليل ما دفعه إلى استخدام القوة لعزله، وتعيين ملك آخر للنوبة، وتذكر هذه المخطوطة (الجزء الثانى، الصفحة ٣١٠) أن حملة حربية (لم تذكر تاريخها) قامت لغزو النوبة بقيادة عز الدين الأفرم... كان الغرض منها هو عزل الملك سمامون، والقبض على أمير نوبى آخر يدعى آنى (الذى يبدو أنه كان ملكاً تابعاً للملك الكبير سمامون) لخروجه على السلطان... غير أن الأفرم لم يظفر بالأمير النوبى الثائر لهروبه إلى شمال كردفان قبل وصول الجيش المملوكى بيومين، فعاد الأفرم إلى دنقلة بعد أسر كثيرين من النوبيين ونهب متاعهم. أما سمامون فلم يعرف عنه شيئ."**

وينقل مصطفى مسعد عن المخطوطة أيضا أن السلطان خليل أرسل من القاهرة أميراً نوبيا يدعى بدمة لمحاربة الأمير آنى،... وتم فى هذا الاجتماع تعيين بدمة ملكاً حسبما تقضى به التقاليد النوبية... وكما هى العادة، فإن صيغة يمين أخرى حلف عليها النوبيون بالولاء للملك الجديد بشرط ولائه للسلطان الجديد. وجاء فى هذا اليمين: " ونحن نرضى (أى النوبيون) أن يقيم مولانا السلطان ملكا، فلاحا أو جبليا: فإن بلاط النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته."***

* سعيد عاشور، العصر المماليكى، المرجع السابق، الصفحة ٩٩.
** مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، الصفحات ١٦٠ إلى ١٦٢.
*** المرجع نفسه، الصفحات نفسها.

وعن حملة السلطان خليل بن قلاوون على بلاد النوبة يزودنا سعيد عاشور بتفاصيل هامة أخرى مستقاة من مصادر أخرى. يقول سعيد عاشور إن حملة السلطان خليل أوغلت كثيراً فى مملكة النوبة، وذلك لمطاردة الملك آنى، ولكن المماليك لم يستطيعوا الاستمرار فى هذه المطاردة بسبب شدة العطش، وما أصاب بلاد النوبة من خراب. فأكتفوا بتأديب الجهات التى وصلوا إليها. ورجعوا بغنائم كثيرة إلى دنقلة. أما سمامون فلا تذكر المصادر عنه شيئاً، ويغلب على الظن أنه مات أثناء هذه المطاردة. وصدرت تعليمات السلطان خليل بتعيين أمير نوبى يدعى بدمة ملكاً على دنقلة، واحتفل بتتويجه، وحلف الرعية يمين الولاء له. وجاء ذلك اليمين مشروطاً بطاعته لسطان المماليك. " ولولا مولانا السلطان ما أطعناك، ومتى تغيرت أمسكناك، ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكاً، فلاحاً أو جبليا، فإن بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته."*

وبعد ذلك حلف المماليك جريس (الذى كان نائباً لملك النوبة فى بعض المناطق). وبذلك يكون كل من بدمة وجريس قد تعهدا بطاعة سلطان المماليك. " وأن أياً من خرج على الطاعة كان الآخر عونا عليه لمولانا السلطان. وبعد رحيل الحملة بخمسة أيام وصل كتاب من بدمة يفيد أن أهل مملكته عادوا إلى بلادهم وأخذوا فى عمارتها. كما وصل كتاب آخر من ملك الأبواب. يعتذر فيه عن عدم حضوره للمثول بين أيدى السلطان، وبذلك" صار جميع بلاط السودان فى قبضة مولانا السلطان وطاعته ". وهكذا تكون حملة السلطان خليل قد حققت نجاحات كثيرة " لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط ." كما يبدو أن الحملات التى أرسلها سلاطين المماليك فى مصر إلى النوبة منذ عهد السلطان بيبرس قد أفلحت فى جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطنة المماليك فى القاهرة، ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين حين وآخر لسلاطين المماليك، ويحتكمون إليهم فيما ينشب بينهم من خلاف."**

ويتضح مما سبق أن فترة سلطنة خليل بن قلاوون على قصرها (مجرد أربع سنوات) كانت حافلة بالأحداث والتطورات، واحتدام الصراع من أجل البقط ، ما بين امتناع عن توريده، وردود أفعال عنيفة لإرغام النوبة على العودة إلى توريده.

---

* سعيد عاشور، العصر المماليكى، المرجع السابق، الصفحتان ٩٨ و٩٩.

** المرجع نفسه ، الصفحات ٩٨ و٩٩ . نقلا عن تشريف الأيام والعصور لمحيى الدين بن عبد الظاهر، الصفحتان ١٥٣ إلى ١٥٥.

التطورات فى البيت المملوكى

أما عن التطورات التى كانت تطرأ على البيت المملوكى فى تلك الفترة، وعلاقة هذه التطورات ببلاد النوبة، فمن المعروف عن عصر المماليك أن الحكم لم يكن يستمر طويلا فى بيت واحد. والمماليك أنفسهم لم يكونوا يؤمنون بمبدأ الوراثة فى الحكم . ويستثنى من ذلك بيت بنى قلاوون، إذ بقى الحكم فيه أكثر من قرن (٦٧٩ – ١٢٧٩/٧٨٢-١٢٨٢)، وذلك على الرغم من المحاولات التى تخللت تلك الفترة لعزل بعض سلاطين بنى قلاوون من الحكم، ونجاح بعض تلك المحاولات فى تحقيق أغراضها. والواقع أن سيف الدين قلاوون نفسه لم يكن يتصور أن السلطنة ستظل فى أعقابه طيلة هذه الفترة. ومن المعروف أن هذا السلطان رفض أن يوقع كتاب ولاية إبنه الثانى خليل لاعتقاده فى سوء خلقه وعدم أهليته. ومع ذلك فقد تولى خليل السلطنة فى سنة ١٢٨٩/٦٨٩. وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظر الأب قلاوون وسبب مخاوفه من إبنه. فهو لم يكد يتولى السلطنة فى هذه السنة حتى أخذ يغدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الكلمة والنفوذ فى عهد أبيه. ولم يلبث خليل أن خر قتيلاً بين أيدى المتآمرين عليه سنة ١٢٩٣/٦٩٣.*

* سعيد عاشور. المرجع نفسه. الصفحات ١٠٥ إلى ١٠٨.

السلطنة الأولى للناصر محمد بن قلاوون

بعد مقتل السلطان خليل استقر رأى الأمراء على مبايعة محمد بن قلاوون - أخى خليل - وتلقب محمد هذا بالناصر. ولم تكن أهمية بيت قلاوون فى العصر المماليكى تنبع فقط من شخصية سيف الدين قلاوون، مؤسس تلك الأسرة، بقدر ما كانت تنبع من شخصية الناصر محمد. غير أن الناصر محمد كان وقت مقتل أخيه السلطان خليل صغير السن، لم يتجاوز التاسعة من عمره حين أعتلى العرش لأول مرة. وكان من الصعب على ذلك الغلام أن يتحمل إدارة شؤون تلك الدولة الواسعة. ولذلك يمكن القول إن سلطنته الأولى القصيرة (٦٩٣ - ٦٩٤ /١٢٩٣-١٢٩٤) كانت مجرد سلطنة اسمية، وأن السلطة الفعلية تركزت فى أيدى مجموعة من كبار الأمراء الذين كان نائب السلطنة زين الدين كتبغا أوفرهم قوة. واحتدم النزاع بين هؤلاء الأمراء، وعندئذ خشيت أم السلطان الناصر محمد على ابنها، فأرسلت إلى كتبغاً تقول: " إيش قصدك حتى نفعله ؟ إن كان قصدك تخلع ابنى فأفعل."*

وتظاهر كتبغاً بالزهد فى السلطنة، ومع ذلك كان صاحب الكلمة الأولى فى شئون الدولة، ولا حيلة للسلطان الصغير معه. وتم عزل هذا السلطان بعد سنة واحدة من توليه السلطنة، وأعلن كتبغا سلطاناً. " وحجب السلطان الناصر محمد ببعض القاعات بقلعة الجبل، واستمر إلى أن أعطى الكرك، فسار وسكن بها، ومعه بعض الأمراء. وتم ذلك فى عهد سلطنة المنصور لاجين."**

وفى ذلك يقول المقريزى: " وفى ليلة الأربعاء حادى عشر من المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة خلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكانت أيامه سنة واحدة بنقص ثلاثة أيام لم يكن له فيها أمر ولا نهى."***

---

* المرجع نفسه ، الصفحات ١٠٩ إلى ١١١.

** المرجع نفسه ا، الصفحة ١١٢ .

*** المقريزى ، السلوك ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الصفحة ٢٥٩.

ومن المعروف أن لاجين تولى السلطنة فى الفترة القصيرة ٦٩٦-٦٩٨/٦٩٦-٦٩٨. وقد خلفه الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنة الثانية، وأن السلطان بيبرس الجاشنكير تولى الحكم لفترة قصيرة بين السلطنتين الثانية والثالثة للناصر محمد.

سلطنة زين الدين كتبغا
ومن بعده حسام الدين لاجين

ولم تلبث أن تجمعت عوامل كثيرة حملت الناس على كراهية السلطان زين الدين كتبغا والتشاؤم من حكمه، وأصبحوا يتمنون زوال ملكه، ومنها انخفاض النيل واشتداد الغلاء حتى انتشرت المجاعة وتفشت الأمراض. كما ازدادت كراهية الناس له بسبب كونه مغولى الأصل، ولكن وصوله إلى منصب السلطنة لم ينسه أصله وعشيرته، وقد لقيت أعداد كبيرة من التتار الترحيب فى عهده.

وكان الأمير حسام الدين لاجين وراء جميع مظاهر الإستياء ضد كتبغا، لاعتقاده أن حقه فى السلطنة ليس أقل من حق كتبغا، فأخذ يحرك عوامل البغض ضده، ويحاول كسب تأييد الأمراء، فبايعوه بالسلطنة سنة ١٢٩٦/٦٩٦. ولم تكن تلك هى المشكلة الوحيدة التى واجهت لاجين فى مستهل حكمه، بل كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذى كان "الناس" مازالوا يعتبرونه صاحب الحق الشرعى الأول فى السلطنة، ففكر لاجين فى إبعاده إلى الكرك بعد أن أمنه على حياته، وتعهد بإعادته إلى السلطنة عندما يبلغ سن الرشد.

وفى ذلك الوقت كان مماليك السلطان خليل يتحينون الفرصة للثأر من لاجين الذى تآمر على قتل أستاذهم، وقد نجحوا فى قتله، ولم تكن قد مرت غير سنتين على توليه السلطنة. واتجهت الأنظار إلى الناصر محمد، فاستدعى سنة ١٢٩٨/٦٩٨ من منفاه بالكرك الذى كان السلطان لاجين قد أبعده إليه، وتم تنصيبه سلطاناً مرة أخرى، وكانت تلك هى السلطنة الثانية للناصر محمد.*

* سعيد عاشور، العصر المماليكى، المرجع السابق، الصفحات ١١٣ إلى ١١٨.

السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون

وفى ذلك الوقت ظهر التنافس واضحاً بين أميرين من أمراء المماليك هما بيبرس وسلار، كما احتدم الصراع بين طوائف المماليك البرجية الذين كان نفوذهم آخذا فى الازدياد. وازدادت الأمور اضطراباً نتيجة لقيام سلطان قاصر فى الحكم، واشتعال المنافسة بين أمراء المماليك وطوائفهم. وعيل صبر السلطان الصغير من تضييق الأمراء الخناق عليه. فأخذ يعد للتخلص من الأميرين بيبرس وسلار، ولكن الأميرين أحسا بمؤامرته. فأحاطا بالسلطان فى القلعة. فتظاهر الناصر محمد برغبته فى الحج حتى يسمح له بمغادرة البلاد، ولكنه لم يكد يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذها محلاً لإقامته. وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم، وكان ذلك بعد عشر سنوات من بقائه فى السلطنة (٦٩٨-١٢٩٨/٧٠٨-١٣٠٨)، وكان هذا الاعتزال خاتمة سلطنته الثانية.*

وكتب إليه الأمراء محاولين إثناءه عن قراره بالتنازل عن السلطنة، ولكنه أصر على موقفه، وأبى العودة. فتجددت للمرة الثانية مشكلة شغل العرش. فعرض الأمراء المنصب على الأمير سلار، ولكنه امتنع عن قبوله خشية أن يحيق به ما حاق بكتبغا ولاجين من قبل، ولكنه أشار إلى زميله الأمير بيبرس الجاشنكير، فبايعه الأمراء، وتلقب بالمظفر، وكان ذلك فى سنة ١٣٠٨/٧٠٨. وكانت المشكلة التى واجهت السلطان الجديد هى نفسها التى واجهت كتبغا ولاجين من قبل، وهى أن الناصر محمد كان لايزال يتمتع بعطف "الناس" داخل مصر وخارجها، كما أن أمراء كثيرين لم يعترفوا بسلطنة بيبرس الجاشنكير، فبادر بيبرس بكتابة تقليد يمنح الكرك للناصر محمد، ظناً منه أن فى ذلك ترضية كافية للناصر محمد وأشياعه. ولكن كثيرين من كبار أمراء الشام أصروا على ولائهم للناصر محمد، وأعربوا عن استعدادهم لمساعدته.**

* المرجع نفسه . الصفحات ١١٨ إلى ١٢٠.

** المرجع نفسه . الصفحات ١٢٠ إلى ١٢٢.

العلاقة بين مصر والنوبة
خلال السلطنة الثانية للناصر محمد

يقول سعيد عاشور إن الحملات التى سبق أن أرسلها سلاطين مصر إلى النوبة منذ عهد الظاهر بيبرس البندقدارى قد أفلحت فى جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلاطين المماليك فى القاهرة ويخشون بأسهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين الحين والآخر لسلاطين المماليك، ويحتكمون إليهم فيما ينشب بينهم من خلافات. من ذلك أن أماى ملك النوبة أتى بنفسه إلى القاهرة سنة ١٣٠٤/٧٠٤، يحمل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون هدية كثيرة من الرقيق والهجن والبقر ويطلب معونته ضد منافسيه واعدائه. وقد استجاب الناصر لنداء ملك النوبة، فأرسل معه تجريدة بقيادة والى قوص الأمير سيف الدين طقصبا. وبعد أن أتمت هذه الحملة مهمتها فى مساعدة ملك النوبة، عادت إلى مصر سنة ١٣٠٥/٧٠٥ "بعد غيبة تسعة أشهر ومقاساة أهوال فى محاربة السودان وقلة الزاد". على أنه يبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لأماى ملك النوبة، إذ أن أخاه كرنبس قتله سنة ١٣١١/٧٠١١، ليحل محله على عرش دنقلة.*

وفى ذلك يقول المقريزى إنه فى سنة ١٣٠٤/٧٠٤ (فى اثناء السلطنة الثانية للناصر محمد) "قدم أياى (آماى) ملك دنقلة من بلاد النوبة بهدية مابين جمال وأبقار ورقيق وشب وسنباذج، وطلب عسكراً، فأنزل بدار الضيافة، وعين معه الأمير سيف الدين طقصبا والى قوص وجماعة الوافدية، وعدة من أجناد الحلقة نحو ثلثمائة، ومن أجناد الولاة بالوجه القبلى، ومن العربان جماعة كبيرة، فاجتمعوا من البر والبحر بقوص، وسار بهم طقصبا مع أياى ملك النوبة".**

---

* المرجع نفسه ، الصفحتان ٩٩ و١٠٠

** المقريزى ، السلوك ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الصفحتان ٣٧٩ و٣٨٠.

*** القلقشندى ، صبح الأعشى ، المرجع السابق ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٧٧.

ويقول القلقشندى: " ثم ملكهم فى أيام الناصر" محمد بن قلاوون" رجل اسمه أمى (أماى)، وبقى حتى توفى سنة ست عشرة وسبعمائة. وملك بعده دنقله أخوه كرنبس".***

ويقول النويرى إنه فى سنة ١٣٠٤/٧٠٤ " وصل متملك دنقلة وبلاد النوبة إلى الأبواب السلطانية وأحضر صحبته التقدمة الجارى بها العادة والبقط من الرقيق والهجن والثمار والسنباذج، وغير ذلك، وسأل السلطان معه عسكراً لينهض به على أعدائه الذين يؤخرون مطيعه. فجرد معه الأمير سيف الدين طقصبا فى طائفة من العسكر، فتوجه بهم وأغار وأوغل فى بلاد النوبة وعاد".*

ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال بعد شهور قلائل من تولى بيبرس الجاشنكار السلطنة. فالرأى السائد " بين الأمراء والناس" كان يزداد تعاطفاً مع الناصر محمد. والأحوال المعيشية كانت تزداد سوءاً بسبب تأخر الفيضان وارتفاع الأسعار. فلم يسع بيبرس إلا أن يعلن تنازله عن العرش ويطلب منه العفو. وقرر مغادرة القاهرة بعد أن استولى على ما فى خزائن الدولة من أموال. وكانت تلك نهاية سلطنته القصيرة (١٣٠٩/٧٠٩). وبداية السلطنة الثالثة والرئيسية للناصر محمد التى امتدت حتى سنة ١٣٤٠/٧٤١،** والتى عاصرت إسدال الستار على مأساة ظالمة ومهينة عانى النوبيون آثارها المدمرة على امتداد سبعة قرون.

ويقول مصطفى مسعد إنه مما لاشك فيه أن اختلاف الطامعين بين أفراد الأسرة المالكة النوبية، واستمرار التجائهم إلى السلطنة المملوكية فى القاهرة، كانا ضميناً ببقاء هذه السيادة على بلاد النوبة، حتى فى الحالات التى لم يكن للدولة المملوكية فيها قوة كافية أو وقت كافٍ لليقظة والمراقبة. وليس أدل على ذلك من استمرار السيادة المملوكية على بلاد النوبة فى السنوات الأولى من عهد السلطنة الأولى للناصر محمد، التى كان خلالها لايزال

---

* النويرى ، نهاية الأرب ، المرجع السابق ، الجزء الثانى والثلاثون ، الصفحة ٩١.

** سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٢٤ و١٢٥.

*** مصطفى محمد مسعد ، الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الصفحتان ٣٧٩ و٣٨٠.

طفلاً. ومن الأدلة على ذلك أيضاً قدوم أماى متملك النوبة إلى القاهرة سنة ١٣٠٤/٧٠٤، أى فى عهد سلطنته الثانية، التى لم يكن قد شب فيها كثيراً عن الطوق حاملاً معه هدية للسلطان، وطالباً مساعدته ضد أعدائه.***

*** مصطفى محمد مسعد ، الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الصفحتان ٣٧٩ و٣٨٠.

السلطنة الثالثة للناصر محمد

وأخيرا خرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة، فوصلها فى سنة ١٣٠٩/٧٠٩، وكانت تلك السنة هى بداية سلطنته الثالثة، التى أستمرت، كما سبق القول، قرابة إحدى وثلاثين سنة. والى جانب انشغاله بأمور البلاد الداخلية، كانت له اهتماماته بتأمين حدود الدولة، فكانت حملاته ضد النوبة.

ويتحدث القلقشندى عن فترة السلطنة الثالثة للسلطان محمد، فيقول إنه ملك النوبة " فى أيام الناصر محمد بن قلاوون رجل أسمه أمى (أماى)، وبقى حتى توفى سنة ست عشرة وسبعمائة، وملك بعده دنقله أخوه كرنبس. ثم خرج منهم رجل إسمه نشلى، فهاجر إلى مصر، وأسلم وحسن إسلامه، وأقام بمصر بالأبواب السلطانية، وأجرى عليه السلطان الناصر رزقاً، ولم يزل حتى امتنع كرنبس من أداء الجزية سنة ست عشرة وسبعمائة، فجهز إليه السلطان العساكر مع نشلى المقدم ذكره، وقد تسمى عبد الله، ففر كرنبس إلى بلاد الأبواب، فاستقر عبد الله فى ملك دنقلة على دين الإسلام، ورجعت العساكر إلى مصر وبعث الملك الناصر إلى ملك الأبواب فى أمر كرنبس، فبعث به إليه، فأسلم وأقام بباب السلطان، وبقى نشلى فى الملك حتى قتله أهل مملكته سنة تسع عشرة وسبعمائة، فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم."*

* القلقشندى، صبح الأعشى، المرجع السابق، الجزء الخامس، الصفحتان ٢٧٧، ٢٧٨.

وظل الأمر على هذه الحالة الدالة على ضعف المملكة النوبية وقناعتها بتبعيتها للسلطنة المملوكية. غير أن بعض العناصر النوبية الثائرة ظلت تسعى للفتنة. بدليل ما تذكره بعض المراجع من أن أماى مات قتيلا فى سنة ١٣١١/٧١١. وأن أخاه (كرنبس) خلفه على العرش.

وكان هذا الملك الجديد بدوره فى حاجة إلى تأييد السلطنة المملوكية ضد هذه العناصر الثورية. ولهذا أعلن ولاءه للسلطان الناصر محمد. وقدم إلى القاهرة حاملا الجزية والضرائب المقررة على بلاده. غير أن كرنبس هذا بعد أن نجح فى تثبيت نفوذه فى بلاده، وتخلص من منافسيه على عرش النوبة، اتجه إلى التخلص من التبعية للسلطنة المملوكية. فامتنع عن أداء الجزية فى سنة١٣١٥/٧١٥.*

غير أن حركته وافقت استقرار الأمور فى الدولة المملوكية ببلوغ الناصر محمد سنا تؤهله للسلطنة، وتمكنه من التغلب على جميع عناصر الفتنة. وهذا هو سر إرسال الحملة الناصرية الأولى سنة ١٣١٥/٧١٥ إلى بلاد النوبة. ولكن هذه الحملة لم تظفر بكرنبس لهروبة إلى مملكة الأبواب. وليس هناك ما يشير إلى عودة هذه الحملة إلى مصر كما جرت به العادة. ولعلها بقيت فى دنقلة إلى أجل غير مسمى، إلى أن تتمكن من تنفيذ أوامر السلطان فيما يتعلق بتنصيب ملك جديد لبلاد النوبة.**

ويعطينا ابن خلدون تفسيرات وتواريخ مختلفة بعض الشيئ: " وكان ملكهم بدنقلة أيام سارت العساكر من عند قلاوون إليها سنة ثمانين وستمائة، واسمه سمامون. ثم كان ملكهم لهذا العهد أسمه أى (أماى). لا أدرى أكان معاقبا لسمامون أو توسط بينهما متوسط. وتوفى أى سنة ست عشرة وسبعمائة، وملك بعده فى دنقلة أخوه كربيس (كرنبس). ثم نزع من بيت ملوكهم رجل إسمه نشلى (برشمبو)، وأسلم وحسن إسلامه، وأجرى (السلطان الناصر محمد) له رزقاً وأقام عنده. فلما كانت سنة ست عشرة وسبعمائة (أى خلال السلطنة الثالثة للسلطان الناصر محمد)، امتنع كربيس من أداء الجزية، فجهز السلطان إليه العساكر وبعث معها عبد الله نشلى المهاجر إلى الإسلام من بيت ملكهم، فخام كربيس (جبن وتراجع) عن لقائهم، وفر إلى بلد الأبواب، ورجعت العساكر إلى مصر واستقر نشلى فى ملك النوبة على حالة من الإسلام."***

---

* مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٦٣ و١٦٤.

** المرجع نفسه ، الصفحتان ١٦٤ و١٦٥.

*** ابن خلدون ، العبر ، المرجع السابق ، المجلد العاشر ، الصفحتان ٩٢١ و٩٢٢.

ويمضى مصطفى مسعد قائلاً إنه كانت هناك ظاهرة جديدة فى الواقع النوبى، وهى أنه كانت توجد بالقاهرة أعداد كبيرة من أمراء النوبة السجناء والأحرار الذين أتت بهم الحملات الحربية السابقة.

وكان بين هؤلاء بعض المطالبين بالعرش النوبى، فاتجهت سياسة السلطنة المملوكية إلى أستمالة هؤلاء الأمراء. وكانت تعيد بعضهم إلى النوبة صحبة الجيوش المملوكية لتعيينهم ملوكاً عليها، لا سيما من أسلم منهم، وكان من هؤلاء أمير تطلق عليه بعض المراجع سيف الدين عبد الله برشمبو النوبى، وهو إبن أخت داود ملك النوبة."* ويقول القلقشندى عن عبد الله برشمبو هذا إنه أسلم وحسن أسلامه، وأقام بمصر بالأبواب السلطانية، وأجرى عليه السلطان (الناصر) محمد بن قلاوون رزقاً."**

ونواصل مع مصطفى مسعد، بقوله إن سياسة تعيين ملك مسلم لحكم بلاد النوبة كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد، كما كانت أحد العوامل الحاسمة فى سقوط ملكة النوبة المسيحية، ذلك أن اختيار السلطان الناصر محمد لعبد الله برشمبو سنة ١١٣٦/٧١٦ ملكاً على النوبة أدى إلى ظهور بنى الكنز بصورة واضحة على مسرح الأحداث فى بلاد النوبة، بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبى، وتزوجوا من نبات ملوكها."***

وفى ذلك يقول النويرى أيضاً: " وفى شهر رجب سنة ست عشرة وسبعمائة رسم بتجريد طائفة من الأمراء إلى بلاد النوبة وهم...... وصحبتهم سيف الدين عبد الله برشنبوا (برشمبو) النوبى، وهو ابن أخت داود ملك النوبة، وكان قد ربى فى البيت السلطانى من جملة المماليك السلطانية، فرأى السلطان (الناصر محمد) أن يقدمه فى ذلك الوقت على أهل بلاده ويملكه عليهم، واتصل خبر هذه الحادثة بالملك كرنبس متملك النوبة، فأرسل إبن اخته كنز الدولة إبن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز إلى الأبواب السلطانية، وسأل شموله بالانعام السلطانى فى توليته الملك، وقال إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم، وهو أبن اختى والملك ينتقل إليه بعدى، فوصل كنز الدولة إلى الأبواب السلطانية، فلم يجب إلى ما طلب، ورسم السلطان بمنعه من العودة إلى بلاده، فأقام بالأبواب السلطانية، وتوجه العسكر وصحبته عبد الله برشنبوا، فلما وصلوا

* مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٥.
** القلقشندى ، صبح الأعشى ، المرجع السابق ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٧٧.
*** مصطفى مسعد ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٦٥ و١٦٦.

إلى دنقله فارقها متملكها كرنبس وأخوه أبرام، واتجها إلى جهة الأبواب، واستجار كرنبس متملكها فقبض عليه، وتركه فى جزيرة، وكتب إلى مقدم العسكر فخبره أنه قبض عليه وعلى أخيه واحترز عليهما.

وسأل أن يسير إليه من يتسلمهما، فسير إليه جماعة من رجال الحلقة، فتسلموهما، وأحضروا إلى الأبواب السلطانية تحت الاحتياط، واعتقلا، وملك عبد الله برشنبوا دنقلة، وأستقر ملكه، وعاد العسكر إلى القاهرة، فكان وصوله فى جمادى الأولى سنة سبع عشرة وسبعمائة."*

ومع النويرى مرة أخرى فى متابعته لتلك الأحداث: " ولما وصل متملك النوبة وأخوه إلى الأبواب السلطانية سأل كنز الدولة الإذن فى العود إلى ثغر أسوان، وأنهى أن له بالثغر سواقى وعليه خراجاً للديوان السلطانى، فرسم بعوده إلى بلده، فتوجه إلى الثغر ثم توجه منه إلى جهة دنقلة، وكان عبد الله برشنبوا لما ملك غير قواعد البلاد، وتعاطى نوعاً من الكبر لم تجر عادة ملك النوبة بمثله، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة، فكرهوا ولايته، فلما قصدهم كنز الدولة ووصل إلى بلد الدو- وهى أعلى بلاد النوبة – استقبله أهل البلاد بالطاعة وحيوه تحية الملك.... وانضموا إليه، ودخلوا تحت طاعته، فتقدم إلى دنقلة، فخرج إليه برشنبوا والتقوا، فقتل برشنبوا، وملك كنز الدولة بلاد النوبة، إلا أنه لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله، وتعظيما لهم، وحفظا لكرامتهم، ووصل الخبر إلى الأبواب السلطانية بقتل برشنبوا فى شوال سنة سبع عشرة وسبعمائة، فعند ذلك رسم السلطان بالإفراج عن أبرام أخى كرنبس وأرسله إلى النوبة، وأمره أن يحتال فى القبض على إبن أخته كنز الدولة، وإرساله إلى الأبواب السلطانية، ووعده أنه إذا فعل ذلك أفرج عن أخيه كرنبس وملكه وأرسله، وتوجه أبرام إلى دنقلة، فاستقبله إبن أخته كنز الدولة بالطاعة وسلم إليه الملك، وصار فى خدمته... فلما قرب إلى الدو قبض أبرام على الكنز الدولة وقيده وعزم على إرساله، فمرض أبرام وهلك بعد ثلاثة أيام من حين القبض على إبن أخته، فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم، فملك البلاد حينئذ ولبس التاج، واستقل بالمملكة."**

---

* النويرى ، نهاية الأرب ، المرجع السابق ، الجزء الثانى والثلاثون ، الصفحتان ٢٣٧ ، ٢٣٨.
** المرجع نفسه ، الجزء نفسه ، الصفحتان ٢٣٨ و٢٣٩.

ويقدم المؤرخون الحديثون تفسيراً لموقف السلطان الناصر محمد من كنز الدولة العربى الأصل، ورفضه الاعتراف بتوليه ملك النوبة. فيقول مصطفى مسعد: " غير أن السلطان الناصر رفض الاعتراف باعتلاء كنز الدولة عرش النوبة، لسبب واضح هو أن تولية ملك عربى حكم النوبة، يؤدى إلى زوال نفوذ السلطنة المملوكية على هذه البلاد.

ولهذا أطلق سراح أبرام أخى كرنبس، وطلب إليه أن يحتال فى القبض على إبن أخته كنز الدولة. ووعده بأطلاق سراح أخيه كرنبس وإعادته إلى عرش النوبة. ولما وصل أبرام إلى دنقلة، خرج إليه كنز الدولة طائعاً. ويقال إنه سلم إليه الملك وسار فى خدمته. ثم سار شمالاً ليحث النوبيين على طاعة خاله أبرام.غير أن إبرام لم يرع العهد، فقبض على إبن أخته كنز الدولة ليرسله مقيداً إلى القاهرة. ولم ينقذه من هذا المصير سوى موت أبرام بعد ذلك بثلاثة أيام."*

والمقريزى بدوره يقدم التفسير نفسه، فيقول إنه فى سنة ١٣١٦/٧١٦ " رأى السلطان أن يقدم برشنبوالنوبى، وهو ابن أخت داود ملك النوبة، فجهز صحبته الأمير عز الدين أيبك على عسكر. فلما بلغ ذلك كرنبس ملك النوبة بعث إبن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز يسأل السلطان فى أمره، فاعتقل كنز الدولة. ووصل العسكر إلى دنقلة، وقد فر كرنبس وأخوه أبرام، فقبض عليهما وحملا إلى القاهرة، فاعتقلا. وملك عبد الله برشنبو دنقلة، ورجع العسكر فى جمادى الأولى سنة سبع عشرة، وأفرج عن كنز الدولة، فسار إلى دنقلة وجمع الناس وحارب برشنبو، فخذله جماعته حتى قتل، وملك كنز الدولة. فلما بلغ السلطان ذلك أطلق أبرام وبعثه إلى النوبة، ووعده إن بعث إليه بكنز الدولة مقيداً أفرج عن أخيه كرنبس. فلما وصل أبرام خرج إليه كنز الدولة طائعاً، فقبض عليه ليرسله مقيدا إلى القاهرة. فمات أبرام بعد ثلاثة أيام من قبضه، فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه البلاد."**

ويعود مصطفى مسعد مرة أخرى إلى مزيد من التفسير لموقف الناصر محمد من كنز الدولة، فيقول إن النوبيين التفوا حول كنز الدولة للمرة الثانية، وأصروا على أن يملكوه البلاد، وإن كنز الدولة لم يسعه - بعد أن غدر به خاله - إلا أن يلبس تاج الملك ويمارس حقوقه الملكية فى سنة ١٣١٧/٧١٧. ولكن الدور الذى قام به الكنوز لم يرق فى نظر الناصر محمد، وكان من الطبيعى أن تعمل السلطنة المملوكية على الحد

* مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٨.

** المقريزى ، السلوك ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الصفحتان ٥١٥ و٥١٦.

من سلطانهم. وهذا هو سر الحملة التى بعث بها السلطان الناصر إلى النوبة سنة ١٣٢٣/٧٢٣، لخلع كنز الدولة، وإعادة كرنبس إلى العرش. وأتمت الحملة عملها بإجلاس كرنبس على العرش بعد هروب كنز الدولة من دنقلة.*

ويتحدث المقريزى عن حملة سنة ١٣٢٣/٧٢٣ بقوله إنه فى أول ذى الحجة خرج الأمير علاء الدين على بن قراسنقر والأمير سيف الدين أيدمر الكبكى، والأمير طقصباى المرتبة فديته بقوص، وخمسمائة من أجناد الحلقة، إلى بلاد النوبة، ومعهم كرنبس، فانتهوا إلى دنقلة - وكان قد تغلب كنز الدولة عليها، ونزع كرنبس - ففر كنز الدولة منهم، وجلس كرنبس على سرير ملكه وعادوا، فحارب كنزا لدولة كرنبس بعد عود العسكر وملك منه البلاد ".**

ويحدثنا سعيد عاشور بدوره عن حملة الناصر محمد على بلاد النوبة فى سنة ١٣٢٣/٧٢٣. فيقول إنها كانت آخر حملة نسمع عنها فى التاريخ أرسلها سلاطين المماليك لإخضاع النوبة. فقد دأب سلاطين المماليك منذ أيام السلطان بيبرس على إرسال حملات إلى بلاد النوبة. وكان سندهم فى تلك الحملات أن مملكة النوبة مسيحية حكمها ملوك مسيحيون، الأمر الذى جعلهم يعتبرون بلاد النوبة ميداناً جديداً للجهاد إلى جانب الميدان الصليبى القديم فى حوض البحر المتوسط. ولكن الأمر انتهى فى عهد الناصر محمد بقيام كنز الدولة فى حكم دنقلة. وكنز الدولة لم يكن مسيحياً، وإنما كان مسلماً ينحدر من أصل عربى صريح. ولم يقف الأمر عند تولى حكم النوبة ملك مسلم، وإنما أصبحت تلك البلاد ذات صبغة عربية نتيجة هجرة بعض القبائل العربية إلى بلاد النوبة، واستقرارهم فيها. وبذلك لم يعد هناك مبرر لاستمرار تدخل سلاطين المماليك فى شئونها، وتمسكهم بضرورة قيام ملوك النوبة بإرسال البقط، وإن هذه الضريبة لم يعد لها مبرر (وهل كان لها مبرر أصلاً) بعد أن غلب الطابع العربى والاسلامى على بلاد النوبة."***

---

* مصطفى مسعد . الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى . المرجع السابق . الصفحتان ١٦٨ و١٦٩.

** شوقى الجمل . المرجع نفسه . الصفحتان ٢٥١ . ٢٥٢.

*** شوقى الجمل . المرجع نفسه . الصفحتان ٢٥٢ و٢٥٣.

*** مكى شبيكة . السودان عبر القرون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٩٦٤ . الصفحتان ٣٨ و٣٩.

ويؤكد شوقى الجمل هذه المعنى أيضاً بقوله: " وهكذا أصبحت الجيوش المملوكية فى حملات متتابعة. وانتهى الأمر بالقضاء على الممالك المسيحية فى بلاد النوبة. وأخذت القبائل العربية تتوافد على النوبة وتنتشر فى ربوعها. فلم يأت القرن الخامس عشر إلا وكان الدين الجديد قد استقر بها. بدليل ما يذكره المؤرخون عن انقطاع الجزية. ومنذ أوائل القرن الرابع عشرة الميلادى أخذت جموع من عرب جهينة تهاجر من مصر إلى بلاد النوبة. واندمجت هذه الجموع فى النوبيين وصاهرتهم. وأسهم هذا بالطبع فى تحويل البقية الباقية من مسيحى النوبة إلى الإسلام ".***

وترتب على ذلك أن انتشرت اللغة العربية. وحلت مكان اللغة النوبية فى المكاتبات. كما خربت الكنائس النوبية. وزالت مجموعة كبيرة من المبانى التى امتاز بها الفن المعمارى المسيحى النوبى. وتحولت كنائس كثيرة إلى مساجد. ومن بينها كنيسة دنقلة التى تم تحويل طابقها العلوى إلى مسجد. على أن هذه الهجرة العربية إلى النوبة. والمصاهرة بين الشعبين. قد ترتب عليهما ظهور المجموعات النوبية المستعربة. ومن أهمها الكنوز والسكوت والمحس والدناقلة. وظل الكنوز يمثلون أقوى هذه العناصر فى بلاد النوبة حتى نهاية الدولة المملوكية الثانية بمصر والشام سنة ١٥١٧/٩٢٣ على يد السلطان سليم.*

ويجمل شوقى الجمل العوامل التى عجلت بسقوط ممالك النوبة المسيحية فيما يلى:
١/ ازدياد نفوذ العرب فى بلاد النوبة نتيجة الهجرات العربية المتتالية. واستقرارهم فيها ومصاهرتهم مع السكان.
٢/ الخلافات بين أفراد الأسرة المالكة النوبية. وهو ما أضعفها. وأتاح للسلطات الحاكمة فى مصر فرص التدخل فى شئونها.
٣/ حملات سلاطين المماليك المتتابعة على بلاد النوبة. لا سيما بعد أن أخذت ممالك النوبة تهدد مصالح مصر التجارية فى البحر الأحمر.
٤/ الضعف الذى كانت عليه الكنيسة المسيحية فى مصر بحيث كانت عاجزة عن تقديم العون لكنائس النوبة.
٥/ فساد كثيرين من ملوك النوبة وضعفهم. فلم يعد باستطاعتهم تقديم العون لرعاياهم. وهو ما كان يضطرهم إلى اللجوء للقبائل العربية القوية طلباً للحماية. وبخاصة من تجار الرقيق.
٦/ التدهور الاقتصادى الذى أصاب بلاد النوبة. لاسيما نتيجة للنزيف البشرى على امتداد قروق عديدة.*

---

* المرجع نفسه ، الصفحة ٣٩.

ويزيد مكى شبيكة الأمر وضوحا: " واعتلى (كنز الدولة) العرش، ولكنه لم يضع تاج الملك على رأسه متظاهراً بإكرام أخواله، وتعظيمه لهم، ولكن الأرجح أن التاج كان يحمل علامة الصليب، ولا يليق به وهو مسلم أن يحمله على رأسه، ولم يكن للسلطان الناصر أن يعترف بهذا الملك الذى وصل إليه كنز الدولة بدون تأييد الدولة المملوكية.

ولذلك أطلق سراح أبرام أحد إخوة كرنبس، وطلب إليه أن يقبض على إبن أخته بالحيلة، ووعده باطلاق سراح أخيه وإعادته إلى عرشه، وفى دنقلا خرج كنز الدولة طائعاً. ويروى أنه سلم إليه الملك، وسار معه شمالاً لحث النوبيين على طاعة أبرام، غير أن الخال قبض على إبن أخته وأرسله مقيداً إلى القاهرة، وقبل أن يغادر بلاد النوبة فى طريقه إلى القاهرة مات أبرام، والتف الناس مرة أخرى حول كنز الدولة ولبس هذه المرة التاج ومارس حقوقه كملك سنة ١٣١٧ م (٧١٧هـ). وبعث الناصر بحملة جديدة سنة ١٣٢٣ (٧٢٤ هـ) تمكنت من بتنصيب كرنبس ملكاً بعد أن هرب كنز الدولة من دنقلة. ولكن العرش كان على أسس واهية، ذلك أن كنز الدولة استرجعه بمجرد مغادرة الحملة دنقلة".**

ويمضى مكى شبيكة قائلا إنه " يتضح من هذه الأحداث التى سردناها، منذ بدأت علاقة المماليك ببلاد النوبة،أن استقلال دولة المقرة النوبية بدأ يضمحل، ولم يعد المماليك يكتفون بعلاقة دفع البقط، كما كانت تفعل الدول الإسلامية التى سبقتهم فى مصر، بل فرضوا جزية أيضا، وأصبح لنفوذهم العامل الحاسم فى تنصيب ملوك النوبة.

ومع ذلك كان هؤلاء الملوك يحاولون التملص من سيطرة المماليك ونفوذهم كلما سنحت لهم الفرصة حتى أولئك الملوك الذين تربعوا على عرش النوبة بنفوذ المماليك وحمايتهم. ويبدو أيضاً أن الدولة المملوكية ما كانت ترضى عن استقرار العرب فى بلاد النوبة، وقد ظهر ذلك فى العهود التى أخذها ملوك النوبة على أنفسهم، ومن هنا كان عداؤهم لبنى الكنز، وتفضيلهم سلالة الملوك الأصليين عليهم، ومع ذلك كان العرب يتسربون إلى بلاد النوبة ويستقرون فيها، إما من تلقاء أنسهم، أو البقاء فيها عقب كل حملة مملوكية تم تجريدها على بلاد النوبة، وهؤلاء كانوا عونا وعضداً لدولة بنى كنز فى نضالها ضد المماليك، واستمر دخول النوبيين فى الإسلام يتواصل كلما إزداد اختلاطهم بالعرب."*

مراجع البحث

المراجع مرتبة هنا حسب تسلسل ورودها فى النص:

(١) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها، دار الفكر العربى، غير مؤرخ.

(٢) إبن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، طبعة مكتبة مدبولى، رقم ١٠ فى سلسلة صفحات من تاريخ مصر، ١٩٩٩.

(٣) أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت، المجلد الثانى.

(٤) أبو العباسى البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧.

(٥) أبو جعفر الطبرى، تاريخ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق مصطفى السيد وطارق سالم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، غير مؤرخ، الجزء الثانى.

(٦) محمد بن سعد بن منيع الزهرى، كتاب الطبقات الكبير، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٢، المجلدان السادس والتاسع.

(٧) محمد إبراهيم نقد، علاقات الرق فى المجتمع السودانى، دار الثقافة الجديدة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

(٨) مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، سلسلة " دراسات تاريخ السودان فى العصور الوسطى، (١) ، ١٩٦٠.

(٩) ياقوت الحموى، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، الجزء الخامس.

(١٠) تقى الدين المقريزى، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية)، مكتب الثقافة الدينية، غير مؤرخ، الجزء الأول.

(١١) عطية القوصى، تاريخ دولة الكنور الإسلامية، سلسلة تاريخ بلاد النوبة، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية، ١٩٨١.

(١٢) أحمد سوكارنو عبد الحافظ، صفحات من تاريخ النوبة، القاهرة، ١٩٩٦.

(١٣) نعوم شقير، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، المجلد الثانى، الباب الثانى، القاهرة، ١٩٥٦ .

(١٤) سعاد ماهر محمد، مدينة أسوان وأثارها الإسلامية، الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والرسائل العلمية، ١٩٧٧.

(١٥) أحمد بن أبى يعقوب، المعروف باليعقوبى، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، السلسة الجغرافية، ٦، ١٩٨٨، الصفحتان ٩٤ و ٩٥.

(١٦) أبو الحسن المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا – بيروت، ١٩٨٧، الجزء الثانى.

(١٧) أحمد الحفناوى، سودان وادن النيل فى ظل الإسلام، دار المعارف، ١٩٨٢.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة القديمة التى قام بإعدادها وتحريرها: إبراهيم زكى خورشيد، أحمد الشنتناوى، عبد الحميد يونس، دار اشعب، كتاب الشعب، مواد مختلفة.

(١٩) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

(٢٠) موسوعة العلامة إبن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٩٩، المجلدات السابع والتاسع والعاشر.

(٢١) عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر، دارالفكر العربى، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤.

(٢٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، الهيئة العامة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، رقم ٢٠٧، ٢٠٠١.

(٢٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤.

(٢٤) توفيق بن عامر، الحضارة الإسلامية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، أطروحة دكتوراه.

(٢٥) مكى شبيكة، السودان عبر العصور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.

(٢٦) أبوالعباس القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، الجزءان الخامس والثالث عشر.

(٢٧) أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٧٢.

(٢٨) سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عهد الإخشيديين، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢٩) صفاء حافظ عبد الفتاح ، السودان وثورتهم فى المدينة المنورة، دار الفكر العربى، ١٩٩١.

(٣٠) عز الدين بن الأثير، أسد الغابة فى معرفة الصحابة، المجلد الثانى.

(٣١) شوقى الجمل، تاريخ سودان وادى النيل، حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور للوقت الحاضر، الجزء الأول، ١٩٦٩.

(٣٢) شهاب الدين النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق عدد من المحققين ومراجعة محمد مصطفى زيادة، مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب، ثم بدار الكتب والوثائق القومية، الأجزاء الثلاثون حتى الثانى والثلاثون.

(٣٣) أبو محمد عبدالله بن محمد المدينى البلوى، سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ٥٥.

(٣٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية فى مصر، تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.

(٣٥) تقى الدين المقريزى، كتاب المقفى الكبير، دار الغرب الإسلامى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩١، الجزء الرابع.

(٣٦) تقى الدين أحمد المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لجنة إحياء التراب بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، أجزاؤه الثلاثة.

(٣٧) بدر الدين العينى، السيف المهند فى سيرة المالك المؤيد، شيخ المحمودى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ٩٢، حققه وقدم له فهيم محمد شلتوت، راجعه مصطفى زيادة.

(٣٨) بدر الدين محمود العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، العصر الأيوبى، الجزء الأول، دار الكتاب والوثائق القومية ، ٢٠٠٢.

(٣٩) تقى الدين المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، تحقيق عبد القادر عطا، ١٩٩٧، الجزءان الثانى والثالث.

الفهرس

رقم الإيداع : ٢٧٢٧ / ٢٠٠٨


مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ٤٨٢٧٨٥١



٦٠ شارع القصر العيني [١١٤٥١] - القاهرة
تليفون: ٢٧٩٥٤٥٢٩ - ٢٧٩٢١٩٤٣ . فاكس: ٢٧٩٤٧٥٦٦
٤٢ ميدان البصرة - أول شارع دجلة - المهندسين
تليفون: ٣٧٤٩٢١٤٥ - ٣٧٦١٨٣٨١ . فاكس: ٣٧٦١٨٣٨١
email: alarabi5@link.net